روايات عبير

المؤامرة الكبرى

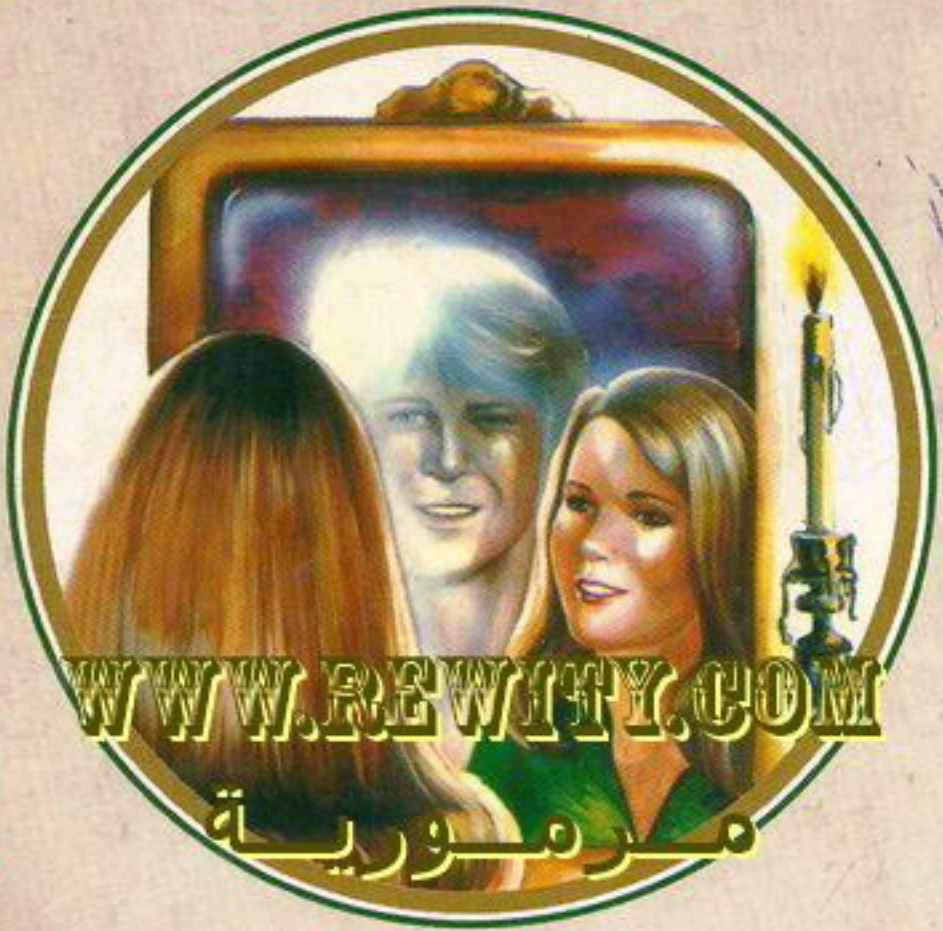

WWW.REWITY.COM

مـــرمـــوريـــة

Hannah BLANCHET

N° 660

روايات عبير

كانت "فاني" تعيش أياما سعيدة في منزلها الريفي.
فجأة جاء شاب أسود الشعر، "رومان دو بلشاس"؛
ليثير الاضطراب في هذه الحياة الهادئة، ويحمل لها خبرا غير متوقع.
لقد ورثت الفتاة الشابة ثروة كبيرة في "كولومبيا".
نما شعور لطيف بين الشابين. ولكن هل كان "رومان" صادقا؟
وما هو دور "كلودين" الجميلة التي تبعد عنهما
آلاف الكيلو مترات، ويبدو أنها تقود اللعبة؟

ISBN 9953-38-034-1

9 789953 380346

ثمن النسخة

لبنان	٢٥٠٠ ل.	قطر	٨ ريال
سوريا	٧٥ ل.	مسقط	٧٥٠ بيسة
الأردن	١ دينار	مصر	٥ جنيه
السعودية	٨ ريال	المغرب	٢٠ درهم
الكويت	٧٥٠ فلس	ليبيا	١ دينار
الإمارات	٨ دراهم	تونس	٣ دينار
البحرين	٧٥٠ فلس	اليمن	٢٥٠ ريال
U.K.	2£		

شخصيات الرواية

- "فاني دو سان أماند" : فتاة في العشرين، تعيش في مدينة ريفية مع مربيتها، ويهتم بشؤونها محامي العائلة.

- "تيريز" : تعمل مربية وطباخة في منزل عائلة "دو سان أماند".

- "أندريه دوريل" : محامي عائلة "دو سان أماند"، وتعتبره "فاني" عمها.

- "رومان دو بلشاس" : مهندس شاب هاجر إلى "كولومبيا" ليحقق ذاته ثم عاد إلى موطنه "فرنسا".

www.rewity.com مـر مـوريـة

الغلاف الأمامي

عاشت "تيريز" المربية العجوز تقدم خدماتها لعائلة "دو سان أماند" بكل وفاء. لقد حفظت عهدها لـ"ألين" أم الصغيرة "فاني" وظلت تعتني بها كأنها أمها.

لقد كانت "فاني" يتيمة الأبوين، ولكن كانت "تيريز" تحمل سرا لا تستطيع أن تبوح به لـ"فاني" وشاركها العم "أندريه" هذا السر.

هل سيحين الوقت للكشف عنه؟ وماذا سيكون رد فعل "فاني"؟

الفصل الأول

حاولت "فاني" دون جدوى أن تتعلق بحلمها. ولكن هرب منها دون رجعة، فقررت أخيرا أن تفتح عينيها. استغرقت بضع ثوان؛ لتستعيد أفكارها وتعرف أين توجد؟

فجأة، تذكرت واعتلت شفتيها ابتسامة أضاءت وجهها. كانت مستلقية بين الحشائش البرية تحت شجرة كريز غنية بثمارها الحمراء تستظل بظلها. ولكن جاءت نسمة من الجبل فحركت بخفة أغصان الشجرة فكشفت عن الشمس الحارقة التي حرقت وجهها لحظة. وكان ذلك كافيا لكي يوقظها.

نهضت "فاني" ونظرت أمامها مباشرة فوجدت منظرا معتادا ممتدا أمام عينيها. تأملت في حنان المنزل الموجود على بعد أمتار من شجرة الكريز: منزل ريفي مبني من الأحجار الصفراء، لقد ولدت في هذا البيت. واسمه "لا ميكولين". كان يحف الطريق صفان من النباتات، ويؤدي هذا الطريق إلى بوابة ثقيلة من الخشب يفتح على حجرات مظلمة ورطبة، وكأنها سرية، أما شجرة العنب التي زرعها جدها فقد تسلقت الحائط، وبدأت تكبر حتى بلغت السقف المائل في انحناء لطيف في اتجاه الأرض. عن اليسار تندات ذهبت الشمس بلونها، امتدت لتحمي شرفة صغيرة كانت "فاني" تحب الاستراحة فيها في ساعات الظل.

في الحديقة الغنية تشابكت فروع أشجار السرو والإيكالبتوس والزيتون لتكوّن قبوا فوق أرضية مزروعة بالورد.

بعيدا، بعيدا جدا رأت جبال "الألب"، وهنا وهناك قمم

صغيرة من الثلج الأبيض تلمس عنان السماء الصافية.

كانت ساعة عذبة. مررت "فاني" يدها على شعرها الأسود الطويل لتخلصه من القش الذي علق به أثناء نعاسها، ونهضت في حركة رشيقة، وقبل أن تسلك طريقها إلى البيت قطفت بشكل تلقائي بعض ثمرات الكريز. وبخطى رشيقة سارت في اتجاه "لاميكولين" وحاولت أن تستعيد حلمها. كانت تمتطي حصانا أبيض جميلا وتسير في طريق مترب وتلتفت من آن إلى آخر؛ لترى الفارس الذي يتعقبها.

هذا الفارس كان يرتدي ملابس داكنة. استطاعت أن تقرب المسافة بينهما. حتى إنها رأت وجهه. كانت ملامحه التي كشفت عن جمالها لا يبدو عليها أي تعبير. فقط عيناه، فقد قرأت فيهما إرادة متوحشة شعرت بانها خائفة منه ومنجذبة إليه في نفس الوقت، لم تعرف إلى أي الشعورين تميل. ترددت بين أن تتابع عدوها نحو المجهول محاولة الهروب منه أو أن تستسلم لمن يتعقبها. في هذه اللحظة استيقظت.

كانت قد وصلت بالقرب من البيت وبعد أن دفعت البوابة دخلت الممر الواسع. جاء لها صوت من المطبخ فتوجهت نحو حقل "تيريز". كانت "تيريز" تعد واحدة من الأكلات التي تحتفظ بأسرارها والتي كانت جزءا من الميراث الذي تتناقله السيدات في العائلة مما جعلها مشهورة في البلاد.

طلبت منها عدة مرات أن تفتح مطعما أو على الأقل تستقبل ضيوفا يدفعون لها ثمن الوجبات لذيوع صيتها في إتقان الأكلات الشهية.

لم يكن لها مثيل في صناعة الأطباق التي تبدو ظاهريا

بسيطة، والتي كانت تصنعها بمهارة مثل أطباق اللحم. كانت أفضل من يخلط الأعشاب أو تجمع بين أنواع الصلصة المختلفة أو تعد الحساء اللذيذ الذي يطبخ على نار هادئة خلال ساعات طويلة في أوان نحاسية كبيرة تمتلكها الأسرة منذ سنوات طويلة.

ولكن مع كل توسلاتها كانت تجيب "تيريز" بـ" لا". في كل مرة كانت ترفع رأسها نحو "فاني" وتتمتم:

– وأنت من سيهتم بك؟ لقد عهدت إلي السيدة "دوسان أماند" بذلك قبل أن تموت، وهذا واجب مقدس بالنسبة لي.

وإذا أصرت "فاني" كانت تظهر ضيقها وتصيح:

– هيا صه، أنت تضيعين وقتي. اخرجي! لدي عمل أقوم به.

مر على ذلك ست عشرة سنة، وأصبحت "فاني" فتاة رائعة صورة من والدتها التي ماتت مبكرا. وتقول "تيريز" – التي تعرف كل أسرار عائلة "دوسان أماند" – إنها قد ماتت من الحزن.

عندما علمت "تيريز" أن سيدتها الشابة قد سئمت الحياة عندما عرفت أن زوجها قد هرب، ولن يعود أبدا، واستسلمت للموت، خرجت "تيريز" إلى الجبل بحثا عن أعشاب سحرية تعيد إليها طعم الحياة. ولكن لم يفلح شيء معها وماتت ذات صباح في هدوء بعد أن نطقت اسم ابنتها "فاني". ووجدت "تيريز" حينئذ نفسها وحيدة مع هذا الحمل اللطيف على ذراعيها، وحملت للطفلة الصغيرة نفس الحب الذي كانت تحمله لأمها. وخلال كل هذا الوقت استطاعت أن تخفي عن الطفلة الجميلة "السر الكبير".

جاءت ذراعان نضرتان وبرنزيتان تحيطان عنقها في لطف فأغلقت عينيها في سعادة. نعم من حسن الحظ أن لديها "فاني" الصغيرة، هذه النبتة الرائعة التي سهرت عليها ليلا ونهارا، والتي ترد إليها الحب الذي تمنحها إياه خلال كل هذه السنوات الطوال.

بعد أن طبعت قبلة على خد السيدة العجوز المجعد اقتربت "فاني دوسان أماند" من الفرن.

– ماذا تطبخين لنا أيتها الجميلة "تيريز"؟

– حساء اللحم.

استنشقت "فاني" الرائحة اللذيذة التي ملأت المكان. وقالت:

– فكرة طيبة جدا. سيسعد العم "أندريه" كثيرا.

وافقتها "تيريز" على هذا الرأي. إنها تعرف نهم السيد "أندريه" المحامي.

– يا صغيرتي يجب أن تعدي المشهيات في الشرفة.

– نعم بالتأكيد.

فتحت الفتاة الشابة الدولاب، وأخرجت منه بضع زجاجات وضعتها على الطاولة الحديدية، ثم ملأت دلوا بماء بارد، وأخذت الأكواب من فوق الرف. وعندما انتهت من مهمتها صعدت إلى الطابق العلوي، لتأخذ دشا وتبدل ملابسها للعشاء.

في الواقع، لم يكن "أندريه دوريل" عمها ولكنه كان محامي العائلة منذ الأزل، ولقد كان يهتم بشكل أخوي بأعمال والدتها عندما أصبحت بمفردها، ومنذ موت السيدة الشابة أولى هو أيضا "فاني" كامل رعايته وحنانه.

شعرت "فاني" بالانتعاش عند نزول الماء البارد على جسدها،

وبعد أن جففت نفسها بعناية، نظرت إلى صورتها في المرآة الكبيرة في فخر، وهي صورة فتاة يانعة في العشرين. ثم لبست بنطلون چينز أبيض، وبلوزة فضفاضة، ولونت شفتيها بأحمر شفاه خفيف؛ لتضفي عليهما بعض الحيوية، ومشطت شعرها الأسود الطويل ثم نظرت إلى نفسها من جديد في المرآة وشعرت بالرضا. عندئذ سمعت رنين التليفون في الطابق السفلي.

صاحت "تيريز":

– إنه السيد "أندريه" يريد أن يكلمك.

نزلت تقفز على درجات السلم الواسع ذي الأحجار المتهالكة على جانبيه، وأمسكت سماعة التليفون التي مدت "تيريز" يدها بها إليها.

– عمي "أندريه"؟ ماذا تفعل؟ إني أنتظرك على العشاء، لقد أعدت لك "تيريز" أحد أطباقك المفضلة لكني أتركه لك مفاجأة.

– لا تقلقي يا عزيزتي "فاني" سأكون عندك حالا. تعرفين أنني لا أستطيع أن يفوتني هذا العشاء لأي سبب من الأسباب.

كان صوته مفعما بالوفاء عبر أسلاك التليفون.

– لكن هناك مشكلة صغيرة أريدك أن تعرفيها. هل أستطيع أن أحضر ومعي ضيف؟ اغفري لي جرأتي، ولكنه قد حضر حالا من بلاد بعيدة، وهو لا يعرف البلاد على الإطلاق، وأخشى أن أتركه بمفرده هذا المساء.

صاحت "فاني":

– أهلا به. سأخبر "تيريز" بأن تضيف شخصا إلى العشاء، لا تقلق إذن.

– حسنا.. سنكون في "ميكولين" بعد نصف ساعة على الأكثر.

أسرعت "فاني" إلى المطبخ؛ لتخبر "تيريز" بهذا النبأ، وقد أخذت "تيريز" تتمتم ثم خرجت إلى الحديقة.

كانت الساعة السابعة والنصف مساء. في هذا اليوم من شهر يونيو (حزيران)، كان الجو لطيفا والضوء مازال ساطعا. وقالت في نفسها: «الجو يبشر بصيف جميل».

خرجت إلى الحديقة، وذهبت لتتنزه في الأرض المملوكة لها. قالت في نفسها: «كم هي جميلة!».

في الواقع، لقد كان ينبعث من الـ"ميكولين" والأنحاء المحيطة به هدوء غير تقليدي يبعث الدفء في القلب. إنها هنا في مأمن عن جنون الإنشاءات الذي سيطر على الريف، والتي تتناقض مع الطابع الخاص بهذا الإقليم ذي التجمعات السكنية الكبيرة، والمنازل الكبيرة الريفية– مثل منزل "ميجان لوكاب"– الواقعة وسط الريح الشمالية الباردة التي تهب على "فرنسا" والذي لم يشتره سوى الهولنديين الذين يجهلون الطبيعة المناخية لهذا الإقليم.

الحمد لله.. إن النطاق الذي تعيش فيه قد احتفظ بطبيعته. إن الأشياء التقليدية– من بينها أشجار العنب بالتأكيد– قد سمحت للقرية بأن تحتفظ بطابع خاص بها.

في الصيف يذهب الباريسيون إلى مقاطعة "ترياس"، ولكي يظهر لهم سكانها أنهم غرباء يتحدثون بلغتهم الإقليمية حتى لا يشجعوا الفضوليين على الاختلاط بهم في أحاديثهم.

كانت قد تقدمت حتى شجرة الكريز، هذه الشجرة التي

كانت تحكي لها كل أسرارها، والتي لعبت دورا كبيرا في حياتها. نظرت إليها في عرفان، كم كانت تشعر بالاطمئنان في وجودها، هل هي تخيلات أطفال؟ لا يهم! أهم شيء بالنسبة لها هو أنها هنا، وأن حياتها في "ميكولين" تجلب لها سعادة لا نظير لها.

بعد قليل سمعت صوت سيارة تقترب، إنها سيارة الحامي. فتح باب السيارة، وأسرعت "فاني"؛ لتلقي بنفسها بين ذراعي العم "أندريه". إنه رجل طويل وشعره أبيض. وبعد أن طبع قبلة على جبينها التفت نحو رجل شاب كان قد اقترب منه. قال:

– أقدم لك "رومان دو بلشاس". إنه قادم من "أمريكا" ولقد وصل بعد ظهر اليوم.

لم تستطع أن تخفي دهشتها وهي تنظر إليه. هذا الضيف المفاجئ القادم مع العم "أندريه" يشبه تماما هذا الفارس الغامض الذي رأته في حلمها؟

كان لـ"رومان دو بلشاس" شعر أسود غزير يتناسب تماما مع بشرته البرنزية لقد تعرفت خاصة على عينيه، وهما عينان رماديتان رأت فيهما شيئا من الفتور.

قالت دون أن تلاحظ أنه هو نفسه قد وقع فريسة لبعض الاضطراب الذي استطاع أن يخفيه بسرعة:

– أهلا بك في "ميكولين".

انحنى الرجل الشاب في احترام وقال بصوت جهوري:

– أشكرك على استقبالك اللطيف يا آنستي. اغفري لي جرأتي على أنني فرضت نفسي بهذه الطريقة.

أشارت بأن ذلك ليس له أي أهمية، واستدارت وتقدمتهما

إلى الشرفة حيث كانت طاولة الطعام في انتظارهم، ولكن بسرعة طلب منها عمها المعذرة.

– سأترككما بضع دقائق. سأحيي "تيريز".

ابتسمت "فاني". لقد كانت تعرف عادات العم "أندريه" جيدا، فهو يحب– قبل أن يذهب إلى طاولة الطعام– أن يذهب ليستنشق رائحة الطعام اللذيذة المنبعثة من الأواني. ولكن في هذه المرة كان هناك سبب آخر لرغبته في لقاء المربية العجوز بمفردها.

رآها تفتح زجاجات الشراب. قالت عندما رأته يدخل المطبخ:

– أتمنى أن تكون لاتزال تحب الأطباق التي أطهوها.

– أكثر من أي وقت مضى يا عزيزتي "تيريز"، ولكن.

أدركت على الفور أن هناك شيئا ما يشغله، وأن لديه شيئا مهما يريد أن يخبرها به؛ فتوقفت عن عملها.

– ماذا يحدث يا سيد "أندريه"؟ تبدو قلقا.

جلس المحامي في أحد المقاعد وزفر.

– لدي خبر سيئ وطيب في نفس الوقت. إن الأمر يتعلق بوالد "فاني". يجب أن نخبرها ببعض الأشياء. لكنني سأخبرك بالتفاصيل غدا؛ لأن هذه ليست الساعة المناسبة لهذا الحديث. يمكنها أن تسمعنا. تعالي إلي مكتبي في "نيم" سأنتظرك نحو الساعة الحادية عشرة.

رفعت يديها إلى السماء:

– أنباء سيئة أخرى!

أشار لها المحامي بأن تصمت، خشية أن تسمعها الفتاة الشابة. خفضت "تيريز" رأسها، وقالت:

– سأكون هناك.

خلال هذا الوقت في الشرفة تعارف الشابان.

– أخبرني عمي أنك قادم من "أمريكا"؟ من أين بالضبط؟

– من "كولومبيا".

تحمست "فاني" لكي تعرف أكثر.

– أوه! أرجوك حدثني عن هذا البلد الذي يبهرني. باستثناء إقامتي لوقت قصير في "باريس"، لا أعرف سوى "نيم" و"ترياس" حيث قضيت كل حياتي. أشعر ببعض الخجل من جهلي.

ارتسم تعبير ساخر على وجه الرجل الشاب ثم قال:

– لا تأسفي لذلك يا آنستي، الحياة في هذا المكان لابد أن تكون طيبة جدا، إني مقتنع بذلك. إن هذا الإقليم يعد اكتشافا بالنسبة لي. لقد كنت قد نسيت جمال الطبيعة في "فرنسا" القديمة. إن ما رأيته عند قدومي إلى "ترياس" رائع حقا.

ابتسمت إليه شاكرة، وأجابت في لطف:

– هذا صحيح. إني أحب البلد الذي يحيط بي، لم أعد أستطيع أن أعيش في مكان آخر بما أن هذا البلد يشكل جزءا مني. ولكن هذا لا يمنع انني من وقت لآخر أشعر بالرغبة في معرفة شيء آخر وآفاق جديدة. "أمريكا الشمالية" أو "الجنوبية" مثلا.

أضافت وهي ترى العم "أندريه" يقترب من الشرفة:

– عدني أنك ستحدثني عن "كولومبيا" فيما بعد.

أشار بالقبول. جلس المحامي في أحد المقاعد، وشرعت "فاني" تقدم المشهيات. كانت تعرف ما يفضله عمها، فوضعت في

عناية شرابا ثم أضافت إليه بضع نقاط من النعناع قبل أن تضيف إليه الماء البارد. ثم التفتت إلى "رومان".

سألته مبتسمة:

– هل تأخذ نفس الشيء؟

– بكل سرور.

نظرت إليه خلسة وهي تعد له الشراب. بدون شك، لقد كان الرجل الشاب يتمتع بجاذبية كبيرة. إن حلته الفاتحة التي يلبسها كانت تتناسب مع بشرته البرنزية. حركاته محددة تؤكد أن "رومان" رجل واثق بنفسه. لاحظت لأول مرة أنه ينظر إليها في دهشة معتقدا أن لا أحد يلاحظه.. دهشة بها بعض السخرية، لو كانت تستطيع أن تقرأ أفكاره...

ولكن "فاني" كانت سعيدة جدا في هذا المساء حتى إنها لم تتوقف لتسأل نفسها عن هذا التصرف الغريب. لقد كانت هناك أفكار أخرى في رأسها في هذا المساء. لقد أضفت زيارة "رومان دو بلشاس" غير المتوقعة جوا من الاحتفال على العشاء في هذه الجمعة في "ميكولين". وخلال العشاء سأل "أندريه دوريل" في عناية عن أخبار الفتاة الشابة وروى لها الأحداث المهمة في "نيم" خلال الأسبوع الماضي.

لم يكن وجود "أندريه" الذي تدعوه عمي ليثير ضيقها أبدا بل على العكس. إنه لطيف ومثقف ومولع بالتاريخ والفنون، كما أنه محدث ماهر، فلم يكن لهذا الرجل العجوز نظير في عقد المحادثات الثرية التي تضيف إلى ما تعلمته في مدرسة "نيم"، ولكن في هذا المساء فقط جاء حضور هذا الشاب الوسيم المجهول ليغير عادة ثابتة؛ فإن زيارة الغرباء كانت نادرة

جدا في "ميكولين".

عندما جاءت "تيريز" لتخبر "فاني" بأن المائدة معدة، نهضت في رشاقة ودعت ضيوفها إلى حجرة الطعام الريفية الكبيرة التي تتكون من دولاب مستدير، وطاولة طويلة وضعت عليها "تيريز" مفرشا مطرزا. وضعت وعاء به حساء ذو رائحة شهية، وبعد قليل لم يسمع سوى صوت الملاعق مع الأطباق.

لاحظت "فاني" الرضا على وجه عمها فعرفت أن "تيريز" – كالمعتاد – قد أحسنت صنع طعامها. عاد الحديث من جديد عند صب الشراب في الأكواب.

مال المحامي نحو الرجل الشاب:

– عزيزي "رومان".. اسمح لي أن أدعوك هكذا.. ما رأيك في هذا الطعام الشهي؟

ابتسم الرجل الشاب:

– منذ وقت طويل، أعترف بأنني نسيت طعام المطبخ الفرنسي الشهي.

سألته "فاني":

– هل تركت "فرنسا" منذ وقت طويل؟

أجاب:

– منذ حوالي خمس سنوات.

قالت:

– لقد وعدتني بأن تحدثني عن حياتك في "كولومبيا".

فجأة، بدا القلق على "أندريه دوريل". لقد خشي أن يقدم "رومان" – خلال حديثه عن هذا الموضوع – معلومات توقظ انتباه الفتاة الشابة. بما أن الوقت قد حان للكشف عن هذه

المعلومات فقد كان يفضل أن يكشف هو بنفسه أو "تيريز" عن الماضي لـ"فاني".

نظر إليه "رومان" ليطمئنه، شرع في الحديث عن "بوجوتا" و"كارتاجان". لقد نزل يوما ما في العاصمة الكولومبية وفي جيبه شهادة الهندسة التي حصل عليها من "باريس". بسرعة تولى العمل مع رجل أعمال كولومبي وبنى لحسابه شققا سياحية فاخرة في قرى سياحية، وبعد ذلك صمم فندقا في "كارتاجان". ثم في يوم ما شعر برغبة لا تقاوم في العودة إلى "فرنسا" بلده العزيز، وبدون أن يفكر ركب في نفس المساء الطائرة القادمة إلى "باريس".

كانت "فاني" تسمعه دون أن تنبس بكلمة وعندما انتهى من حديثه قالت:

– أنت تعرف عمي "أندريه" إذن؟

كان السؤال واضحا ومحددا. ألقته بدون أي مكر، ولكن أدرك الرجلان أنها تنتظر الإجابة.

تدخل "أندريه دوريل" وهو يشعر ببعض الضيق:

– لقد عمل "رومان" مع أحد أعز أصدقائي في "كولومبيا"، وبمجرد أن وصل إلى "فرنسا" فكر في أن يأتي لرؤيتي.

سألت الفتاة الشابة:

– وهذا الصديق لم تره منذ زمن طويل؟

زفر "أندريه دوريل":

– نعم منذ وقت طويل، لقد عرفت أنه مات منذ شهرين.

بدت "فاني" راضية بهذه الإجابة، لقد رفعت هذه الإجابة الإحراج عن الرجلين. وفكرت في أن تسأل "تيريز" حتى

تتأكد.

عاد الحديث من جديد، وبدا "أندريه دوريل" منشغلا. استمر الشابان في الحديث ولكن هناك شيء ما قد كسر سحر هذ الأمسية. وبعد قليل نهضوا لتناول القهوة في الشرفة، وبعد نصف الساعة استأذن المحامي للانصراف.

قال معتذرا لـ"فاني":

– لابد أن صديقنا متعب جدا من رحلة السفر. سأوصله إلى "نيم".

قبل خدي الفتاة الشابة في حرارة، ودخل إلى المطبخ ليودع "تيريز". خلال هذا الوقت أوصلت "فاني" "رومان" إلى السيارة.

قالت بابتسامة جميلة وهي تمد إليه يدها:

– أتمنى أن أراك قريبا. سأكون سعيدة أن أكون لك مرشدا إذا بقيت في هذا البلد. لا تتردد في المجيء إلى "ميكولين"، أهلا وسهلا بك دائما.

انحنى.

– لن يفوتني الاستفادة من دعوتك الكريمة.

عندما رحلا أسرعت "فاني" إلى المطبخ. زفرت:

– أليس جميلا وجذابا؟

رفعت "تيريز" كتفيها. لقد كانت شاردة ومضطربة تفكر فيما قاله لها المحامي. لقد أدركت أن عزيزتها "فاني" ستواجه ماساة قد تترك في نفسها آثارا عميقة.

بدت الفتاة الشابة دهشة أمام صمت مربيتها. اقتربت منها، ووضعت– في حنان– يدها على كتفها.

– هيا يا عزيزتي "تيريز"، ماذا يحدث إذن؟ يبدو عمي ليس في حالته الطبيعية وأنت أيضا، إني لم أرك أبدا في مثل هذه الحال.

تمتمت "تيريز":

– ما هذه الفكرة التي في رأسك؟

دهشت "فاني" لهذه النبرة التي لم تعتدها. أدركت أنها في هذا المساء لن تنتزع شيئا من بين شفتي مربيتها. بعد أن طبعت قبلة رقيقة على خدها توجهت إلى غرفتها، ولكن عندما تمددت على سريرها وجدت صعوبة في النعاس؛ هناك ما يثير حيرتها: صمت "تيريز" وارتباك عمها.

كما أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في الرجل الطويل الأسمر الذي ظهر فجأة في حياتها مثل الفارس الذي رأته في حلمها. لقد رأت فيه جاذبية كبيرة، وشعرت بالسعادة لفكرة أنها ستراه مرة أخرى، ولكن هل سيأتي فعلا ليراها؟ لقد كانت مقتنعة بذلك. ستأخذه إلى الريف تحت شجرة الكريز مثلا وسيحدثها بإسهاب عن رحلاته؛ وبذلك سيطوف بها في جولة حول العالم.

الفصل الثاني

قال "أندريه دوريل" وهو يجلس خلف مكتبه:

– تفضلي بالجلوس يا "تيريز".

كان المكتب مهيبا. الكتب في كل مكان، وعلى الحائط صورة معلقة لأبي المحامي، رجل وقور، هو الذي أسس المكتب منذ سنوات طويلة، وعرفته المربية منذ أن كانت لاتزال طفلة. على الرف، كانت توجد مجموعة كبيرة من الملفات. ساد المكان جو هادئ ومطمئن في نفس الوقت.

منذ زمن طويل لم تأت السيدة العجوز إلى "نيم"، وكان لابد أن تجد حجة معقولة لتبرر لـ"فاني" سبب مجيئها، والتي أصيبت بدهشة كبيرة.

سألت الفتاة الشابة في رقة:

– هل تريدين أن أرافقك؟

ولكن "تيريز" رفضت قائلة:

– شكرا يا صغيرتي. استمتعي أنت بهذا اليوم الجميل، سأركب الأوتوبيس من الموقف. تصرفي في الغداء؛ لأني لا أعرف كم من الوقت سأتأخر يجب أن أسوي عملا خاصا بمرتبي في البلدية.

قبل أن تغادر المنزل نظرت طويلا لـ"فاني" التي بدت في هذا الصباح سعيدة جدا. فكرة أن هذه السعادة ستهتز قريبا جعلت الدماء تتجمد في عروقها. ثم رفعت كتفيها. بما أن السيد "أندريه" قد أكد لها أن الوقت قد حان؛ لكي يقول كل شيء لـ"فاني" عن ماضي عائلة "سان أماند" فلابد أن تترك هذا

البيت.

وفي المكتب كانت جالسة أمام المحامي الذي ينظر إليها في حنان، ضعفت المربية العطوف. لقد منحت الفتاة الصغيرة الكثير من الحب منذ اليوم الذي قالت لها فيه السيدة "دو سان أماند" وهي على فراش الموت: «لم يبق لها سواك أنت و"أندريه"». فهي لا تحب أن تضطر الآن أن تكشف لها عن ماض مثقل بالأحزان.

قال "أندريه دوريل" في جدية:

– لقد أتمت "فاني" عامها العشرين فهي الآن في السن المناسبة؛ لكي تعرف كل شيء.

همست:

– فعلا.

هزت رأسها، كم من الصور قد تراكمت خلال هذه السنين العشرين. استطرد المحامي:

– إيه.. حسنا يا عزيزتي "تيريز"، كنت أفكر على أية حال أن الوقت قد حان لكي نكشف لها عن بعض الحقائق قبل أن تذهب إلى "باريس"؛ لتبدأ دراستها الجامعية. ولكن قد طرأ عنصر جديد وهذا ما يدفعنا للتعجيل. لقد أخبرني "رومان دو بلشاس" الأمس بمعلومات مهمة، في نفس الوقت قد تلقيت فاكس من الخارج يؤكد كلامه، ويضيف معلومات أخرى.

اهتزت فوق مقعدها وقالت:

– "رومان دو بلشاس"، لقد كنت أشك فيه، إنني لا أجده لطيفا على الإطلاق. إنه يتطلع إلى "فاني" بشكل مريب. إني أسأل نفسي: «ماذا جاء يفعل هنا». صدقني يا سيد "أندريه"،

يجب أن تشك في هذا الرجل، إنه يحمل إلينا الألم.

أشار إليها بأن تهدأ. ترك مقعده وشرع يروح ويجيء في الحجرة.

– هيا، هيا يا "تيريز" دعينا لا نجعل هذا الولد فريسة لظننا. إذا كان ينظر إلى "فاني" فذلك؛ لأنه يجدها فاتنة ولا نستطيع أن نلومه على ذلك. ولكن اسمعيني جيدا؛ لأن ما سأقوله لك مهم جدا وخطير جدا أيضا. سنواجه صعوبات ستغير حياتنا جميعا وخاصة حياة "فاني".

تحدث المحامي طويلا. وعندما انتهى ساد صمت طويل. لقد أصابها "أندريه دوريل" باضطراب كبير، وتصورت ماذا سيكون رد فعل "فاني" عندما تعرف.

طرأ على ذهنها الكثير من الذكريات السيئة التي أرادت أن تنساها إلى الأبد. وها هي ستضطر إلى أن تشرك فيها صغيرتها "فاني" التي تعتبرها كابنتها والتي أرادت دائما أن تحميها.

توقف المحامي ونظر إليها في لطف:

– لقد فكرت يا "تيريز"، سيكون من الأفضل أن تخبريها أنت بنفسك. أخشى أن أكون قاسيا. ربما لن نضطر للكشف لها عن الحقيقة كاملة. المسكينة "فاني" ستصاب بصدمة، سيكون هناك الوقت لإخبارها بالباقي.

جاء عصفور ووقف على النافذة وهو يهز رأسه. جاء من الشارع صوت ضوضاء. وهي جالسة في مقعدها في ملابس يوم الأحد السوداء وجدت السيدة العجوز صعوبة في أن تحبس دموعها. إن عالمها سينهار، كانت تعرف ذلك. عالم نجحت في نسجه يوما بعد يوم حتى تكون "فاني" سعيدة، ولكنها كانت

تعرف في قرارة نفسها أن يوما ما سيأتي سيكسر فيه هذا السحر، وأنها ستضطر هي والمحامي لمواجهة هذه الحقيقة القاسية.

كانت تعرف دائما أن الحياة سوف تفرق بينهما يوما ما، وأنها ستفقد شيئا فشيئا هاتين الذراعين الرقيقتين اللتين كانتا تطوق بهما "فاني" عنقها في حنان.

ولكن في كل مرة كانت تواجه فيها السؤال بصراحة، كانت تدفع بهذه الحقيقة بعيدا، والآن ها هي عند تلك النقطة التي كانت تحاول تجاهلها.

عاد إلى ذهنها- وكان ذلك قد حدث بالأمس- صورة السيدة "دو سان أماند" وهي مستلقية على فراش الموت. أخذت إحدى يديها ووضعتها على رأس "فاني" الصغيرة وقالت لها:

- اعتني بها.

ساد الصمت في مكتب المحامي.

صمت أصاب "أندريه دوريل" نفسه بالتوتر. كان قد جلس في مقعده ينتظر القرار. كان يعرف أن هناك معركة قاسية تدور في قلب "تيريز".

فجأة، نهضت السيدة العجوز وتوجهت نحو الباب، وعندما همت بفتحه استدارت وقالت في بساطة:

- ساكلمها بعد ظهر هذا اليوم.

في غرفته بفندق "الإمبراطور" انتهى "رومان" "دو بلشاس" من إفطاره. فرق التوقيت، والتعب المتراكم خلال الرحلة التي قطعها بالطائرة من "بوجوتا" إلى "نيم" عبر "باريس" جعلاه يستيقظ متاخرا. لقد استعاد في سعادة طعم الكرواسون الطازج، والتهم

حبات الكريز المطهوة بالأمس فقط.

تسمر أمام النافذة يتأمل أشجار حديقة الفندق الجميلة وهو يفكر. حتى هذه اللحظة احترم حرفيا الخطة الموضوعة قبل سفره، وبدون شك ستكون "كلودين" سعيدة بذلك. لقد استقبلوه على أنه مرسال يبشر بأخبار طيبة وليس أمامه الآن سوى تجنب الخطوات الخطأ. لقد أحسن المحامي استقباله، ولم ترفع "فاني" عينيها من عليه، لا يوجد سوى المربية العجوز التي تنظر إليه في تشكك، لقد صمم على أن يكون لطيفا خاصة معها. من الخطأ إغفال مدى تأثيرها.

فكر من جديد في "كلودين". بعد بضع ساعات ستذهب كما اعتادت كل يوم في نزهة طويلة في الأراضي التي يملكها "چان دو سان أماند" بالقرب من "كارتاچان" على الساحل الكاريبي. تخيل خصلات الشعر السمراء الطويلة تطير في الهواء، وكبرياءها، وثقتها بنفسها وهي تركب حصانها تتحدى كل خوف وتقفز دون تردد من فوق الحواجز والحفر.

لكنه يتذكر خاصة تلك الليلة التي منحته فيها نفسها. كان ذلك منذ شهرين بعد موت "چان دو سان أماند" بقليل. عندما استدعاهما محامي "بوجوتا"؛ ليقرأ عليهما الوصية، وعندما عادا إلى طريق "كارتاچان" تحدثا طويلا عن النص الغريب لوصية الملياردير.

سألته "كلودين" في جفاف:

- هل كنت تعرف؟

أجاب "رومان" على الفور بالنفي. لقد كان هو نفسه دهشا.

قالت في غضب:

– إذا كنت قد فهمت جيدا فيجب أن أقتسم الميراث مع هذه الفتاة المجهولة. هذا الأمر صعب للغاية! والأصعب أنني لا أستطيع الاعتراض. لقد كان المحامي واضحا في هذه النقطة.

آثر ألا يجيب بشيء. منذ أن عرفها كان يعرف أن السيدة الشابة لها طابع عصبي فتجنب أن يثيرها بكلمات ربما تحكم عليها بأنها خرقاء. لقد كان مغرما بـ"كلودين" وكانت قسوتها تجعله يشعر بالخوف أحيانا فكان يفضل أن يتركها تعبر عن حقدها.

صمتت بدورها، ولكن عندما نظر إلى وجهها أدرك أنها تدبر خطة. ثم غيرت الموضوع وتحدثت عن مزرعة الخيول التي تريد توسيعها. بعد ثلاثة أو أربعة أيام أصبح عشيقها.

ذات مساء بينما كانا في حجرة الطعام للعشاء لاحظ أنها تزينت بشكل خاص وبأنها كانت جميلة أكثر من أي وقت مضى. رفعت شعرها الأسود في شنيون. على الطاولة الإسبانية الكبيرة من الخشب الداكن وضعت شمعدانين فضيين كبيرين يبعثان ضوءا حالما.

جلس كلاهما في مواجهة الآخر طوال السهرة وبدت له فاتنة. انتهى العشاء وصرفت الخدم بإشارة من يدها ثم اقتربت منه بشكل طبيعي فأحاطها بذراعيه ثم قبلها دون أن تبدي أي اعتراض.

وبعد ذلك في كل مساء كان يتبعها إلى حجرتها دون أن ينبس بكلمة. وأصبحت هي عشيقة مطيعة متجاوبة لرغباته. استمر عشقهما عدة أيام حتى قالت ذات مساء، وكان الفكرة قد نمت إلى ذهنها فجأة:

– إن كل هذا حماقة كبرى.

– ماذا إذن يا حبيبتي؟

أراد أن يمسح على خدها في حنان ولكنها دفعته في حدة.

– أن أقتسم هذه الثروة، بالتأكيد أجد أن ذلك ليس من العدل، ولا أنوي أن أستسلم لهذا الأمر.

– ولكن مازال لديك مليون دولار! لا يجب أن تتجاهلي ذلك.

– ربما، ولكنها مسألة مبدأ. ومزرعة الخيول يا "رومان"؟ سيكون لها الحق في أن تأتي إلى هنا، وأن تلعب دور سيدة المنزل؟ هذا محال أن أقبله.

أدرك أنه لن يستطيع مهما بذل من جهد أن يغير موضوع الحديث. لقد قررت هذا المساء أن تفتح الجرح، ومن الأفضل ألا يحاول معارضتها.

قالت فجأة:

– عندي فكرة!

شرحت خطتها في إسهاب لعشيقها، وأدرك على الفور أنها فكرت في هذه الخطة منذ وقت طويل ربما منذ اليوم الذي سلكا فيه طريق "كارتاچان" بعد زيارتهما للمحامي في "بوجوتا".

حاول أن يعترض:

– لكن ما تخططين له بشع. لن أقبل أبدا أن ألعب هذا الدور، أنت لا تدركين ماذا تطلبين مني.

نظرت إليه في حدة وقالت:

– اسمع يا "رومان"، أنت تحبني وتريدني، أليس كذلك؟ إذن يجب أن تقف إلى جانبي. فكر في الثروة التي ستكون لنا إذا

قبلت أن تفعل ما أطلبه منك. إنها ليست سوى لحظة سيئة وستمر. سأتزوجك على الفور، وسنكون ثريين وسعيدين. أعدك بذلك.

رجع "رومان" إلى الخلف. إن السيناريو الذي خططت له "كلودين" لا يعجبه. ولكنها كانت جميلة جدا وحبه لها كان أقوى منه. رفض أن يفكر في أنها سلمت نفسها له فقط لهدف واحد هو أن يكون بجانبها شريك مطيع يستطيع أن يساعدها على تنفيذ مؤامرتها.

لم تطلب منه أن يقرر على الفور.

ـ فكر جيدا يا "رومان". لن أطلب منك أن تجيبني على الفور.

وأضافت قبل أن تنزلق من جديد بين ذراعيه:

ـ مازال الوقت أمامنا.

لقد صمتت على هذا الموضوع في الأيام الماضية، ولكنها لم تكف عن التفكير فيه حتى جاء هذا المساء، وأفصحت عما يدور في ذهنها. لقد استخدمت الدبلوماسية حتى لا تصطدم معه وينتهي به الأمر فيذعن. على أية حال، إنه يموت رغبة في أن يسافر إلى "فرنسا" التي لم يذهب إليها منذ خمس سنوات وهذا هو ما قرره.

بعد ثمانية أيام، بعد أن استمع بذهن شارد إلى توصيات "كلودين" سلك طريق "بوجوتا" وركب الطائرة التابعة للخطوط الكولومبية في اتجاه "باريس". أثناء الرحلة وجد الوقت ليفكر في كل الأحداث التي تتابعت خلال الأسابيع الماضية: موت "جان دو سان أماند"، وخبر وجود ابنة لرجل الأعمال الملياردير

على الطرف الآخر من الأطلنطي، ثورة "كلودين" ورحيله، كل ذلك قد حدث بسرعة.

غلبه النعاس في مقعده ولم يستيقظ إلا في "رواسي". ومن "رواسي" ركب طائرة إلى "نيم"، وبعد الظهر كان في مكتب "أندريه دوريل"؛ ليخبره بالميراث الذي سقط على "فاني"، وليخبره بأن زميله في "بوجوتا" سيرسل له الوثائق الرسمية.

أصابت الرجل العجوز الدهشة عندما عرف هذا الخبر. كان "جان دو سان أماند" ميتا بالنسبة له منذ زمن بعيد. في نفس المساء أخذه لتناول العشاء عند "فاني".

عندما رأى الفتاة الشابة شعر باضطراب كبير، ونجح في إخفاء هذا الاضطراب.

تمدد "رومان" أمام النافذة وقال في نفسه: «"فاني" حقا فتاة شابة جميلة»، لقد استقبلته بحرارة وبكرم ضيافة بالغ. كان يرغب في أن يعود في نفس اليوم إلى "ميكولين" ولكن بعد تفكير تراجع عن هذه الفكرة. إن الاندفاع قد يثير حوله الشك، ويجب أن يترك الوقت حتى يصل إليها الخبر.

ستصاب بصدمة عندما تعرف أنها ورثت مليون دولار. لابد أن تحتفظ بالصمت اليوم وربما غدا أيضا.

ارتدى ملابسه وهو يدندن، وعندما وصل إلى بهو فندق "الإمبراطور" جاءته فكرة: لقد أراد أن يذهب ليتناول الغداء في "سانت ماري دو لامير". وتوجه إلى الاستقبال ليستأجر سيارة.

الفصل الثالث

رفضت "تيريز" دعوة السيد "دوريل" على الغداء، والآن كلما اقتربت السيارة من "ترياس"، كانت "تيريز" تفكر في الامتحان الصعب الذي ينتظرها في "ميكولين". كانت تحمل سرا لا يجب أن يتقاسمها أحد في معرفته سوى الصغيرة "فاني". كانت تقول لنفسها إن هذا السر حمل ثقيل على كاهلها العجوز ولكن كان الحب الذي تحمله في قلبها للفتاة الصغيرة يمنحها الشجاعة.

في الواقع كان يجب أن تحدثها هي وشخص آخر. ردت بالكاد على مزاح السائق "تونين" والذي كان يعلق على كل مشهد يراه أثناء الطريق.

ـ آه.. حسنا يا آنسة "تيريز".. أنت لست مبتهجة هذا الصباح.

يا له من فضولي.

قالت:

ـ اصمت يا "تونين"، لدي شيء آخر أفعله غير سماع الحماقات.

أحرجته فصمت حتى أوقف السيارة في مكان ليس بعيدا عن المنزل، عندئذ قال:

ـ ألست غاضبة مني يا آنسة "تيريز"؟

رفعت كتفيها وأسرعت نحو المنزل في ملابسها السوداء وهي تبدو محملة بالهموم. بعد معاناة حرارة الطريق القاسية، بدا لها جو المنزل رطبا حينما دخلت، توجهت إلى غرفتها على الفور

لتستبدل بملابس الخروج فستانا آخر خفيفا، ثم نزلت إلى المطبخ. إنها في هذا المكان تستطيع أن تفكر بشكل أفضل من أي مكان آخر.

كان المطبخ فسيحا يحتوي على موقد على الطراز القديم، ومدفأة كبيرة جدا من الممكن شي خروف كامل بها. في الوسط طاولة خشبية كبيرة يحيط بها مقاعد خشبية أيضا صنعها خلال أشهر الشتاء الطويلة فلاحو الجبل. وفرشت الأرض بسجاجيد حمراء.

جلست "تيريز" فوق أحد المقاعد. هل تقول لها على الفور؟ ترددت ثم استبعدت هذه الفكرة. لا، من الأفضل أن تنتظر حتى نهاية اليوم في اللحظة التي يكون فيها كل شيء هادئا، وعندما يختفي الضوء بين أشجار العنب ليترك مكانه لليالي الصيف الساحرة في شهر يونيو (حزيران)، في هذه اللحظة ستصطحبها إلى الشرفة. ستجلس كل منهما في مقعد وفي هدوء وبدون مبالغة في العواطف سترغب في أن تخبرها بكل شيء أو كل شيء تقريبا. بما أن ما عرفته من المحامي توا شيء فظيع فيجب إذن أن تخفي عنها بعض الأشياء. إن ماضي عائلة "سان أماند" حزين بالقدر الكافي. هناك هذا الميراث الذي لم يكن متوقعا، ولكن كانت "تيريز" تشك في أن هذا الخبر قد يهدئ من جرح قلب الفتاة الشابة. كانت تعرف زهد فتاتها للمال، فهي لن تعير هذا الخبر أي أهمية.

لكن بالمناسبة أين هي؟ ابتسمت "تيريز" في حنان. لابد أنها مازالت في الحقول تتريض وتمتع نظرها بالمناظر التي تحبها كثيرا. في الواقع كانت "فاني" تحت شجرة الكريز، لم يكن حولها

أي صوت سوى تلك الأصوات التي تسمع في الريف، ويعتادها المرء بسرعة. كانت تعرف زقزقة العصافير المختبئة في أشجار العنب العالية، وصوت أقدام قطيع من الجديان في المرعى. فوق رأسها أعلى الشجرة. كانت بعض العصافير تنقر في سعادة ثمار الكريز، وأمامها تمتد القرية عند أقدام نهر "السيز" المنحدر بين مزارع العنب. لكي يمر الوقت أخذت "تيريز" تنظم المطبخ على الرغم من أنه لم يكن يحتاج إلى ذلك. ونحو الساعة السابعة دق قلبها بسرعة عندما سمعت الباب يفتح ويغلق، وبعد لحظات دخلت "فاني" المطبخ وذراعاها محملتان بالنباتات العطرة التي وضعتها على الطاولة.

– هذه من أجلك يا "تيريز". لقد لاحظت بالأمس أن المخزون لدينا في انخفاض.

همست السيدة العجوز:

– "فاني"...

نظرت إليها الفتاة الشابة متسائلة.

– ماذا هنالك يا "تيريز"؟

– "فاني". أريد أن أتحدث معك. تعالي معي إلى الشرفة.

تبعتها الفتاة الشابة في حيرة.

– اجلسي يا عزيزتي.

– لكنك تثيرين قلقي يا "تيريز". ماذا حدث؟

عندما نظرت إلى السيدة العجوز وهي تنظر إليها بكل هذه الطيبة شعرت بعاطفة كبيرة تتملكها.

استطردت "تيريز":

– يجب أن أحدثك عن والديك.

– لكن ماذا ستقولين ولا أعرفه؟ مات والدي في حادث سيارة عندما كنت في الثالثة من عمري، وماتت أمي بعد ذلك بسنتين بمرض في الرئة.

قالت "تيريز" في حزن:

– لا. مات والدك منذ شهرين فقط في "كولومبيا".

– ماذا..؟

انتصبت "فاني" فوق مقعدها وشحب وجهها وهي تقول:

– كان أبي حيا حتى شهرين مضيا. وأخفيت عني ذلك أنت والعم "أندريه"؟ كيف جرؤتما؟

انفجرت باكية، وأسرعت "تيريز" تأخذها بين ذراعيها. ولكن الفتاة الشابة دفعتها قائلة:

– كيف استطعت؟

دافعت المربية عن نفسها قائلة:

– لكننا لم نكن نعرف مكانه. أنا نفسي لم أعرف الخبر حتى هذا الصباح.

– هذا إذن سبب خروجك هذا الصباح. أنت تخفين عني.

– نعم.. كان هذا هو السبب. كان لدى المحامي بعض الحقائق التي أراد أن يكشف لي عنها. لكن دعيني أشرح لك كل شيء منذ البداية.

جاهدت الفتاة الشابة بشدة لتمنع دموعها.

– هيا، إني أسمعك.

– كان الـ"ميكولين" منزلا سعيدا، وكان والداك متفاهمين، لكن في يوم ما ذهب والدك في رحلة إلى "باريس"، وهناك وقع في حب امرأة أخرى أجنبية من "أمريكا الجنوبية" ومنذ هذه

اللحظة بدأت كل الآلام.

همست "فاني":

– مسكينة يا أمي.

استطردت "تيريز":

– في اليوم التالي عندما عاد من "باريس" لم يعد هو نفسه، وبدأ الشجار بينهما، وبعد بضعة أيام قال وداعا لأمك وكان شيئا لم يكن بينهما. ثم اختفى، لم نره منذ ذلك الوقت أبدا. فقام عمك "أندريه" بالبحث عنه في كل الإقليم أولا ثم في "باريس"، وقامت الشرطة أيضا بالبحث عنه سرا ولكن دون جدوى، فقد الجميع أثره. الله يعلم كم استغرق البحث عنه، وكم كان أمل أمك كبيرا في العثور عليه.

ومنذ ذلك الوقت بدأت الأيام الحزينة تخيم على الـ"ميكولين" هذا المنزل الذي كان ينعم بالفرحة والسعادة، أصبح منزلا حزينا خاصة عندما بدأ المرض يهاجم أمك. استدعينا الأطباء من "نيم" وحتى من "باريس" لاستشارتهم، وأكدوا جميعهم أن الطب قد وقف عاجزا أمام حالتها. كانت أمك تموت من الحزن فلم يستطع أحد أن يقدم لها العون.

كانت "فاني" تستمع إليها دون أن تنطق بكلمة. كانت عيناها مثبتتين على الطاولة التي أمامهما.

استطردت "تيريز":

– استمر ذلك ما يقرب من السنتين. وإذا كانت قد صمدت هذه الفترة فذلك لأنك كنت بجانبها، ولأنها كانت تشعر بالأسف لأنها ستتركك وحيدة. ولقد عشت هذين العامين دون أن تعي بالمأساة التي نعيشها.

قالت "فاني" مفكرة:

– إني أتذكر فقط أن أمي كانت دائما طريحة الفراش، وكان محظورا أن أحدث صوتا.

– ثم انطفأت ذات يوم في هدوء وهي توصينا نحن الاثنان: المحامي وأنا عليك. ومنذ ذلك اليوم بذل كلانا كل جهده حتى لا نخون هذا العهد: أن نربيك كأنك ابنتنا، وألا نخبرك بشيء حتى تبلغي عشرين عاما. وقد جاء وقت الكشف لك عن الحقيقة على أية حال.

عند سماع هذه الكلمات لم تعد الفتاة الشابة قادرة على حبس دموعها، ولكنها علقت على جملة "تيريز" الأخيرة:

– لماذا "على أية حال"؟ لا أفهم ماذا تقصدين؟

– لقد علم السيد "دوريل" أن والدك قد جمع في "أمريكا الجنوبية" ثروة كبيرة. وهانت ثرية الآن.

رفعت "فاني" كتفيها ونهضت فجأة وجرت إلى داخل المنزل. سمعتها "تيريز" تصعد درجات السلم بسرعة، وعندما سمعت صوت الباب يصفق عرفت أنها قد لاذت بالصندرة التي اعتادت أن تلجأ إليها دائما عندما تكون في حاجة إلى أن تختلي بنفسها.

قالت "تيريز" بصوت عال:

– مازلت لم أفصح لها عن كل شيء.

نهضت في حزن، وعادت إلى المطبخ. كانت تشعر بالارتياح وفي نفس الوقت بالقلق بشأن المستقبل. ماذا يدخر لهم؟ قضمت "تيريز" قطعة لحم باردة ثم جلست على أحد المقاعد، ووجدت نفسها تسترجع الذكريات المؤلمة التي قصتها منذ قليل

على الفتاة الشابة.

فجأة شعرت بالقلق لصمت "فاني". أرادت أن تعرف كيف أصبحت؛ فصعدت بجهد إلى الطابق الثاني حيث الصندرة ثم طرقت الباب في تردد.

– لا!

قالت راجية:

– هيا يا صغيرتي، دعيني أدخل، أرجوك، لا أريدك أن تبقي بمفردك. يجب أن أتحدث إليك.

قالت الفتاة في سخرية:

– لماذا، هل مازال لديك أخبار أخرى؟

كما لو كانت تعرف...

– "فاني"، افهميني، لم أكن أستطيع أن أخبرك قبل ذلك بما حدث بين والديك. لقد عاهدت أمك على ذلك، لم يكن ذلك ليغير في الأمر شيئا بما أننا لم نكن نعرف أين والدك.

ساد صمت طويل ثم سمعت صوت قدميها وفتح الباب.

أفسحت الفتاة الشابة الطريق بوجه عابس لتترك "تيريز" تمر.

– تعالي.

جلست "تيريز" على أريكة قديمة.

– أنت حزينة يا طفلتي المسكينة.

لقد أحسنت اختيار كلماتها، فجأة أسرعت "فاني" وألقت بنفسها بين ذراعيها، وفي حنان احتضنتها السيدة العجوز كما كانت تفعل قديما. أرادت أن تشعرها بالأمان.

همست "فاني":

– تعرفين يا "تيريز" لقد كنت أود أن أراه. إنه لأمر" قاس ألا

أرى والدي. بالتأكيد أنا غاضبة منه تماما؛ لأنه هجر والدتي، ولم يؤثر أن يبقى ليراني وأنا أكبر. ولكن هذا لا يمنع أنه والدي رغم كل شيء.

قالت "تيريز" في هدوء:

– لقد فعلت كل ما أستطيع؛ لكي أعوضك عنهما.

صاحت "فاني":

– لن أستطيع أن أشكرك على كل الحب الذي منحتني إياه كل هذه السنوات، بفضلك عرفت معنى السعادة.

بقيتا صامتتين لحظة طويلة، وأدركت المربية أن "فاني" بدأت تهدأ.

قالت الفتاة الشابة فجأة وهي تنهض:

– أريد أن أعرف أكثر عن ذلك. مازالت هناك أشياء غامضة تحتاج إلى تفسير. ما رأيك في أن نتصل بعمي على الفور في "نيم"؟

أوقفتها "تيريز"؛ يجب ألا تكون "فاني" بهذا الفضول.

– تحلي بالصبر، لقد أخبرني أنه سيزورنا غدا.

مالت الفتاة الشابة نحوها وقبلت جبينها.

– عفوا يا "تيريز" أرجو أن تغفري لي اندفاعي منذ قليل. ولكن كانت المفاجأة قوية، ولقد غضبت منك لهذا الكتمان الذي استمر سنوات.

لقد هدأت "فاني" بالفعل.

– تعالي، إني جائعة. لننزل إلى المطبخ.

بينما كانت "تيريز" تعد لها (الأومليت)، قالت الفتاة الشابة:

٥

– أعتقد أن "رومان دو بلشاس" هو الذي جاء بهذه الأخبار، الأمر واضح تماما. كم أريد أن أراه بسرعة.

عندما لم تتلق إجابة "تيريز" قالت "فاني" في إصرار:

– إنه هو. أليس كذلك؟

أذعنت السيدة العجوز.

– لقد عرف والدي إذن، وربما يكون قد حدثني عنه وهو يتحدث عن حياته هناك.

صمتت ثم استطردت:

– إنه جذاب "رومان" هذا، ألا تجدينه كذلك؟

عندما سمعتها تتحدث مرة أخرى عن هذا الشاب عبس وجه "تيريز" دون أن تعرف لماذا؛ فقد كانت تشعر بالقلق تجاه هذا الرجل. إن به شيئا ما يجعلها تشك. ربما تكون متوهمة. على أية حال ستحتفظ بهذه الفكرة لنفسها.

التهمت الفتاة الشابة طعامها في شهية، ثم أخذت مربيتها إلى الشرفة. كانت "تيريز" بعد هذا اليوم المفعم بالأحداث المؤثرة تحتاج إلى أن تذهب لتستريح بغرفتها إلا أن "فاني" لم تترك لها هذه الفرصة. كانت تريدها أن تروي لها الحياة في "ميكولين" قبل أن تولد في العصر الذي كان والداها متحابين.

سألت "فاني":

– هل تعتقدين أنني يجب أن أذهب إلى "أمريكا الجنوبية"؛ لأحصل على هذا الميراث؟

رجعت "تيريز" إلى الخلف. إن فكرة أن ترى "فاني" و"كلودين" تتقابلان تشعرها بالرعب. يجب أن تفعل أي شيء لتمنع هذه الصدمة العنيفة.

أجابتها لتتهرب من السؤال:

– لست أعرف يا ابنتي. لكني أعتقد أنه لا طائل من ذلك. غدا سيخبرك المحامي بما يجب أن تفعلي.

الفصل الرابع

– بسرعة يا "دچانجو"، بسرعة.

طار الحصان الجميل ذو الشعر الأصهب وقد فهم أمنية فارسته. كانت حوافره تلمس بالكاد الرمال الصفراء الناعمة التي تداعبها الأمواج من آن لآخر. كان حمله خفيفا للغاية! السيدة الشابة التي تميل إلى الأمام لتخفف من اصطدام وجهها بالهواء، كانت نحيفة وممشوقة القوام ووجهها مفعم بالحيوية، وأكثر ما يميزها عيناها الزرقاوان بلون المحيط وذلك لما في نظرتهما من قسوة. كما تميزت أيضا بشعرها الأسود الطويل المنسدل على كتفيها. لها شفتان ممتلئتان جميلتان. إنها الآن تشد من أزر "دچانجو" الذي أخذته اللعبة، وأخذ يجري في خفة متجنبا أن يزل.

كانت السماء زرقاء صافية، والحرارة على الرغم من الساعة المبكرة من الصباح قد ارتفعت على البحر الكاريبي، وتسببت في سقوط بعض حبات العرق على خدي "كلودين"، على الرغم من أن السيدة الشابة قد ارتدت ملابس خفيفة: حذاء برقبة، و"بلو چينز"، و"تي شيرت" ملتصقا بصدرها. كانت الجميلة والحصان يستمتعان بالعدو على الشاطئ الخالي تماما بعيدا عن المتطفلين. كانت الجبال الشامخة تحيط بالوادي وكأنها تراقب في غيرة الهدوء الذي تنعم به "كلودين". كان الجو جميلا، وكانت تنعم بهذا السلام الذي يحيط بها.

هدأت "دچانجو" الذي أبطأ من سرعته، وأخذ يمشي في خطوات صغيرة.

صاحت "كلودين":

– لقد حان وقت العودة إلى البيت.

طواعية سلك طريق البيت الذي لم يبعد أكثر من كيلو متر من مكانهما. كان يعلو ربوة تشرف على الشاطئ مبنى أبيض طويل على الطراز الإسباني. وإلى جواره بُني إصطبل كبير يحتوي على حوالي خمسين حصانا.

أسرع السائس نحو "كلودين" ليساعدها على النزول من فوق الحصان، وفي نفس الوقت مد إليها يده بتلغراف.

– لقد جاء ساعي البريد، وسلم لي هذا التلغراف توا يا آنستي.

فتحت الرسالة في عصبية، وقرأت فيها:

«كل شيء يمر كما هو مخطط له.. لا تقلقي.. قبلاتي. "رومان"».

ابتسمت. هكذا لقد ابتلعوا الطعم. بالتأكيد ستضطر للانتظار بعض الوقت، ولكنها ستتحلى بالصبر. المكسب يستحق هذه المشقة.

كبحت غضبها عندما فكرت في أن هذه الفتاة الحمقاء قد تأتي ذات يوم لتشاركها عالمها. نظرت إلى المنزل والمراعي والجبل والبحر القريب. يجب أن تحاول أي شيء، كل شيء لتمنعها من أن تضع قدميها ذات يوم على هذه الأرض. لكن هل تستطيع أن تثق تماما بـ"رومان"؟ ابتسمت ابتسامة صغيرة. إنها تعرف شغفه بها، ولم تندم على أنها سلمت له نفسها. لقد أثبتت الأيام أن حساباتها، كانت مدهشة بما أنه قد قبل أن يشاركها في خطتها. لقد أخفت على "رومان" الخطأ الذي أقدمت عليه

عندما ذهبت لمقابلة المحامي بمفردها.

لقد بدت علامات الدهشة على وجه هذا الأخير عندما سألته "كلودين" إذا كانت وصية "جان أماند" صحيحة تماما، ولا يوجد بها أي ثغرة يمكن استغلالها لإبعاد "فاني" عن الميراث. وسرعان ما ندمت على هذا الاندفاع عندما رأت رد فعل المحامي، ولقد نهض المحامي من مكانه وقال لها في فتور:

– لقد دققت بنفسي في هذه الوصية يا آنستي. إنها صحيحة تماما، وأعرف أين واجبي. من فضلك لا تصري على هذا الحديث.

رفعت "كلودين" كتفيها عندما استدعت هذه الأحداث. لا يهم! "بوجوتا" بعيدة من "ترياس"، وسيحتفظ المحامي بهذا الحديث لنفسه، وستصلح الخطة التي دبرتها ولن يكون هناك شيء يقلقها.

البارحة، قرر "رومان" أن يرسل إليها تلغرافا. بمجرد أن انتهى من غدائه ذهب يتمشى في "سانت ماري دو لا ميز" ثم دخل مكتب البريد. لقد أوحشته "كلودين". كل أفكاره تحوم حول هذه الأمازونية الفاتنة التي تركها كارها. ذكرى الليلة التي سبقت رحيله كانت مطبوعة في ذهنه.

لقد اختصر في التلغراف، حتى لا يكشف عما بينهما. ثم استقل السيارة البيجو التي استأجرها لتوصله إلى "نيم" هل سيذهب في اليوم التالي إلى "ترياس" ليطرق باب الـ"ميكولين" تردد. ربما من الأفضل أن يمر أولا على المحامي. لابد أن الخبر الذي جاء به قد قلب هذا العالم الصغير رأسا على عقب، ويجب أن يتحلى بالحذر.

ولكن في اليوم التالي عندما اتصل بمكتب السيد "دوريل" جاءته الإجابة بأن هذا الأخير متغيب، وأنه لن يعود قبل المساء.

بحجة تقليم الأشجار الموجودة بالقرب من مدخل البيت وقفت "تيريز" ترتقب سيارة المحامي. أرادت أن تتحدث إليه قبل أن يقابل "فاني". عندما رأت السيارة تقترب أشارت إليه بالتوقف.

قالت:

– لقد كنت أنتظرك.

– ماذا إذن؟

– لقد كان الأمر صعبا، ولكنها قد هدأت الآن. إنها غاضبة منا؛ لأننا لم نكشف لها عن حقيقة وجود والدها قبل ذلك. كما أنني لم أخبرها بالباقي.

– حسنا، سأذهب لأراها.

دخلت السيارة الفناء، ثم توجه المحامي إلى الصالون. كانت الفتاة الشابة تنتظره، نهضت وقبلته في حنان. بدت هادئة ولكنه لاحظ لمعانا في عينيها.

– صباح الخير يا عمي. لقد اشتقت لرؤيتك.

ربت كتفها في حنان.

– هل أنت غاضبة منا يا صغيرتي؟ ماذا كنت تريدين منا أن نفعل غير ذلك؟ لقد بذلت كل جهدي لأجده، ولكن باءت كل محاولاتي بالفشل. حتى الأمس كنت أجهل أين يعيش. لقد فكرنا في أنه لا طائل من أن نبلغك طوال كل هذه السنين بأن والدك على قيد الحياة، وأنه قرر ألا يراك. كان من الأفضل أن ننتظر حتى تشبّين؛ لكي تصمدي أمام الصدمة، وتعي ما

حدث. ألا تعتقدين أننا كنا على صواب في النهاية؟

أشارت بالإيجاب.

– لست غاضبة منك يا عمي "أندريه". لو عرفت أنه هجرنا كلينا أنا وأمي في سن صغيرة لكان ذلك غير محتمل بالنسبة لي. أما حين عرفت ذلك اليوم فإني مسلحة بشكل أفضل لتلقي هذا الخبر.

زفر في ارتياح:

استطردت الفتاة الشابة:

– لكن الآن، يجب أن تكمل ما بدأته "تيريز". وبالمناسبة ما الدور الذي يلعبه "رومان" في كل ذلك؟

– إنه دور صديق. لقد كان يعمل مع والدك في "كولومبيا"، ويجهل وجودك تماما. إن المحامي الموجود في "بوجوتا"، والذي فتح وصية "جان دو سان أماند" هو الذي أخبره. وعلى الفور قرر المجيء لرؤيتنا وإخبارنا. لقد سبق التلغراف الذي تلقيته بأربع وعشرين ساعة.

كانت تسمعه بإنصات.

– لقد ورثت ثروة كبيرة يا عزيزتي "فاني". بدون شك لقد شعر والدك بالندم على نسيانه لك ولأمك وكأنه يريد أن يمحو عنك الحزن الذي سببه لك ولكل البيت عندما رحل.

قالت في قسوة:

– هذا لن يعيد إلى أمي الحياة.

– هذا صحيح يا "فاني".. المسكينة "الين" لم تخلق للحياة معه! لقد كانت له روح المغامر الذي يجتذبه العالم الجديد، وكان يشعر بالاختناق في "ترياس". وهي لم تكن تحلم سوى

بالبقاء في هذا الإقليم الذي ارتبطت به بقوة. ولقد حدث ما كان متوقعا ذات يوم: رحل والدك.

بقيت "فاني" مفكرة قبل أن تقول:

– ماذا قال لك بالضبط زميلك في "بوجوتا"؟

توقف المحامي عند هذا السؤال. ثم أجابها:

– لم يقل شيئا محددا. لقد أخبرني فقط بوفاة والدك، وأخبرني بأنك أحد ورثته.

– هل هناك ورثة آخرون؟

تنحنح المحامي:

– بدون شك يا عزيزتي، لابد أنه ترك إرثا لأقاربه. ليس لدي أي تفاصيل.

– سأضطر بالتأكيد للذهاب إلى "بوجوتا".

قال في حرص:

– لن يكون ذلك بالضرورة يا عزيزتي.

نهضت في وثبة:

– بالطبع. إني حريصة على السفر إلى "كولومبيا". أريد أن أتعرف إلى المكان الذي عاش فيه والدي.

زفر "أندريه" ووجد أنه من الصعب تجنب الكارثة. في هذه اللحظة سمع رنين التليفون مما خفف توتر الأجواء.

رفعت الفتاة الشابة سماعة التليفون وارتسمت ابتسامة على شفتيها عندما تعرفت على صوت محدثها.

– بالتأكيد سأسعد بلقائك. تعال إذن بعد الظهر. سنسبح في نهر "لا سيز". الماء هناك جميل جدا، سترى.

التفتت إلى عمها بعد أن وضعت السماعة:

– إنه "رومان دو بلشاس" سنقضي فترة بعد الظهر معا.

سيحدثني عن "كارتاچان".

ارتعش المحامي. بدون شك ستمطره بالأسئلة. على الرغم من وعده له بأن يحتفظ بالصمت، هل سيخبرها بالحقائق كلها؟ دعا "أندريه" الله بألا يفعل، يجب أن يكسب وقتا بأي شكل.

بعد قليل نهض واستأذن ليرحل، وسلك طريقه إلى "نيم"، وبعد ساعة دخلت سيارة بيجو إلى فناء الـ"ميكولين".

قالت "فاني" في سعادة لـ "تيريز":

– ها هو "رومان".

انسحبت "تيريز" في هدوء بينما أسرعت الفتاة الشابة نحو الزائر وأدخلته الصالون.

– ساتركك خمس دقائق فقط الوقت الذي أضع فيه المايوه.

وبالفعل لم ينتظر طويلا، سمع صوت قدميها على درجات السلم. قالت في مرح:

– هيا يا "رومان" سنسلك الطريق المختصر من خلف البيت؛ فهو يقود إلى النهر مباشرة.

قال "رومان" في سخرية:

– هذا اختطاف.

– هل تأسف على ذلك؟

قال معترضا:

– على العكس، إني سعيد جدا بذلك. إني مستسلم تماما بين يديك.

كان الطريق غير ممهد، وزلت قدمها، بتلقائية تعلقت بكتفه فأسرع وأحاط خصرها بذراعه، حتى يمنعها من السقوط.

همست:

– شكرا يا "رومان".

واستكملا الطريق الوعر الذي بدآه. لاحظ الرجل الشاب تورد وجه "فاني". لم يفكر في أن يسخر من خجلها. هو نفسه ألم يشعر ببعض العاطفة عندما لمس خصرها الرشيق؟ وعندما رآها تسير في الطريق لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بقوامها الرشيق، وبشرتها البرنزية، وشعرها الداكن يتراقص خلف ظهرها مع خطوات قدميها، هذا المشهد الذي كان بعيدا عن نسيانه.

فجأة طرأ على خاطره من جديد "كارتاچان"، كأنها ومضة، وللمرة الأولى منذ وطئت قدماه "فرنسا" شعر بعدم الارتياح عندما تذكر مهمته، ظهر أمامه وجه آخر: وجه "كلودين".

«يجب أن تساعدني، فكر في كل الثروة التي ستؤول إلينا إذا قبلت أن تفعل ما أطلبه منك». لقد بدت مقنعة حتى بلغ الطائرة.

ولكن كانت "كلودين" بعيدة، وعلى أية حال لم يكن مهتما في قرارة نفسه بكل هذا المال الذي وعدته به. عندما غادر "باريس" وفي جيبه دبلوم الهندسة المعمارية، لم يجعله يقدم على هذه الخطوة بحثه عن الثروة. في الواقع لقد هرب من بيئة جامدة تنذره بحياة رتيبة، لقد رحل ليعرف آفاقا جديدة. لقد أوصى له والده، الذي كان رئيسا قديما لمحكمة التمييز، أوصى واحدا من أصدقائه يدير مكتب هندسة كبيرا، وبدأ مستقبله مطمئنا. ولكن كان لـ"رومان" فكر متمرد، لقد سئم الهندسة الأكاديمية، ورغب في أن يختطّ عمله وفقا لهواه وفكره.

حماسه وأفكاره الحديثة وضعها في خدمة راعيه الذي قابله في طريقه، والذي لم يكن سوى "چان دو سان أماند". لقد

اقتنع الملياردير بهذا الشاب المتحمس الذي يجيد الحديث عن قضيته، وأعطاه تفويضا كاملا. وكذلك الثروة... رفع "رومان" كتفيه. إن أهم شيء الآن هي "فاني" الجميلة النضرة النقية التي تقوده عبر منظر جميل إلى النهر الذي يستطيع أن يراه من بعيد.

وبعد قليل كانا عند النهر. منذ وقت طويل لم يعرف مثل هذه السعادة.

كانت "فاني" قد غاصت بالفعل، ونادته من وسط النهر:

– هيا يا "رومان".. هل قررت؟

لحق بها، وبعد قليل خرج الاثنان إلى الشاطئ. وشرعت في أن تطرح عليه الأسئلة التي تحرق شفتيها. كان "رومان" يتوقع ذلك. إنه لم يكن أحمق، لقد خمن هدف هذه الرحلة.

قالت له:

– حدثني عن والدي فكل من يعرفونه هنا لم يروه منذ عشرين سنة. أنت وحدك تستطيع أن تحدثني عنه.

سألها "رومان" في هدوء:

– ماذا تريدين أن أقول لك؟

نظرت إليه في دهشة:

– كل شيء بالتأكيد، ألا تعرف أنني لم أعرفه أبدا؟ إنه هجرنا أنا وأمي بينما لم أكن قد جاوزت ثلاث سنوات.. "رومان" أرجوك، أحتاج إلى أن أعرف كل شيء عنه وعن حياته، كيف كان؟ المعلومات التي تقولها لي "تيريز" وعمي قد طردت الصورة التي رسمتها له طوال كل هذه السنوات. إنه قد تحول في ذهني إلى وحش خلال هذين اليومين.

– إنه لم يكن كذلك. لقد كان ضعيفا ومذبذبا، ومثل كل الضعفاء قد اختار حلا متطرفا.

قالت "فاني":

– أرجوك حدثني! حدثني.

– لك نفس رسم وجهه البيضاوي، ولكن العينين...

قاطعته الفتاة الشابة في تأثر:

– لقد أخذت عيني عن والدتي.

استطرد "رومان":

– لقد كانت عيناه فاتحتين أيضا. جبهته عريضة تنم عن الذكاء. لقد جمع الكثير من المعرفة خلال حياته، ولقد شارك الآخرين الذين يحيطون به هذه المعرفة. لقد كان يسخر من نجاحه في قرارة نفسه. إني متأكد من ذلك.

– كيف بدأ كل ذلك؟

– لقد كون والدك العلاقات في "بوجوتا"، ولقد اهتم بالسياحة التي كانت في بدايتها. فكره المتقدم وعلاقاته سمحا له بإقامة عدة مشروعات، وبسرعة جاءت الثروة.

سألت في مرارة:

– ولكن هم تفسر أنه لم يفكر أبدا خلال عشرين عاما في أن يعود إلى "فرنسا"، وأن يعرف أخباري؟

قال المهندس الشاب:

– إني أجهل السبب. لم أكن أعرف حتى بوجودك، لقد كان كتوما، كل ما أستطيع أن أقوله لك أنه كان يعيش لحظات من التوتر كان خلالها يحبس نفسه في مكتبه. لم يفكر أحد في سبب توتره. لم يكن ليسمح لأحد بأن يفعل.

فكر "رومان" قبل أن يقول:

– لقد اقترف ذنبا كبيرا في حقك يا "فاني". إني مقتنع بذلك يا "فاني" ربما يكون قد دفع ثمن هذا الذنب غاليا. على أية حال لقد أخذ "جان دو سان أماند" سره معه في قبره، ولكني ألاحظ على الرغم من ذلك أنه لم ينسك بما أنك أحد ورثته.

عض شفته؛ لأنه تفوه بما لم يكن من الجائز أن يقوله. ولكن قد فات الأوان علقت "فاني" على الجزء الأخير من جملته.

– من هم هؤلاء الآخرون؟

كان يجب أن تحصل على إجابة، ودون أن يدري قدم نفس إجابة المحامي.

قال:

– بعض التركات لهؤلاء الذين عملوا معه.

ثم حاول أن يصرفها عن هذا الحديث الذي سيزج بهما إلى طريق محفوف بالخطر.

– هل ستسبحين من جديد؟ إن الحرارة تخنقني.

ترددت لحظة ثم تبعته. غاصا من جديد في الماء المنعش، لقد اهتزت الصداقة التي بدأت تنمو بينهما. لقد كان "رومان" راضيا بهذه النتيجة بشكل ما. على الرغم من أسفه، ولكن كان لابد من قطع هذا الحديث. إن "فاني" فضولية، ولقد فضل ألا تطرح عليه المزيد من الأسئلة.

خرجا من الماء، وجففا نفسيهما، وارتديا ملابسهما ثم سلكا الطريق المؤدي إلى المنزل، وعندما أشرفا على البيت اقترب منها "رومان" وقال لها:

– هل أجرؤ على أن...

– ماذا يا "رومان"؟

– هل تقبلين تناول العشاء معي هذا المساء؟

ضحكت "فاني":

– أنت طلبت مني ذلك بطريقة رسمية جدا يا عزيزي "رومان". لقد اعتقدت أنك ستطلب يدي.

وضحك بدوره.

– عفوا يا "فاني" ولكني أخشى أن أصيب الهدوء الذي ينعم فيه الـ"ميكولين" بالاضطراب، وأن أغير عاداتك.

– لا تتردد أرجوك. لا تنس أنني في العشرين من عمري، وأنه ليس– لأني أعيش مع "تيريز"، وتحت حماية عمي– من حقي أن أخرج، لقد فكرت، وعرضك مقبول بكل سرور. أين تريدنا أن نذهب؟

أجاب:

– لا أعرف.

قالت:

– هذا صحيح، أنت لا تعرف هذا المكان وأعتقد أنني أعرف ما نحتاج إليه. مكان ليس بعيدا عن هنا. في "كورنيلون" يوجد مطعم جميل، وإذا كان صاحب المطعم في مزاج طيب فسيقدم لنا طبقا شهيا من الحلوى. سأذهب لأتصل به على الفور.

دخلت المنزل ثم عادت بعد قليل.

– لقد كان في أحسن حالاته، وحجز لنا طاولة في الشرفة. سترى أن المنظر جميل هناك.

الفصل الخامس

كان الطريق متعرجا في الجبل، وكلما ارتفعا تراءى لهما الوادي، واختفى الضباب الخفيف الذي تسببت فيه الحرارة، واستمر طوال اليوم.

رأيا القرى متناثرة هنا وهناك في مزارع العنب. بدت الفتاة الشابة سعيدة جدا. لقد طردت الغضب الذي شعرت به عندما سمعت "تيريز" منذ قليل تطلب منها ألا تقبل دعوة "رومان" لها على العشاء.

ولكنها سألتها:

– ولكن فيم تعتبين عليه؟

شعرت المربية العجوز بالإحراج.

همست:

– لا أعرف الكثير عن ذلك، ولكن حدسي ينبئني بأنه نذير شر.

– ليس لك الحق في هذا القول. إنه دمث الخلق، وجذاب، ولا أفهم سبب سلوكك هذا. وكأنها الغيرة.

كانت الكلمة قاسية، ولقد غضبت "فاني" من نفسها؛ لأنها تفوهت بها فأحاطت عنق "تيريز" بذراعيها.

– أرجو المعذرة يا "تيريز"، لم أقصد ما قلته توا. لقد انفلتت مني هذه الكلمة.

قالت لها المربية في وهن:

– معك الحق يا صغيرتي. اذهبي، اذهبي واستمتعي بوقتك. لست سوى عجوز حمقاء تتوهم الأوهام، ماذا تنتظرين من

عجوز مثلي سوى أن ترى الشر في كل ما يحيط بها؟ لا تغضبي مني.

طبعت "فاني" قبلة كبيرة على خدها لتؤكد على مصالحتهما، وذهبت لتلحق بـ"رومان" الذي كان ينتظرها في السيارة.

كان "چانو" صاحب المطعم في انتظار الشابين أمام مطعم "لا بون أوبيرج" عندما رأى السيارة البيجو تتوقف توجه نحوهما.

قال وهو يصافح "فاني":

– أهلا بك يا "فاني"، كيف حالك؟

ثم سلم على "رومان" وأمسك ذراع الفتاة الشابة:

– تعالي، لقد حجزت لك طاولة طيبة، ستكونان في هدوء، لا يوجد زبائن كثيرون اليوم.

ثم استطرد في سخرية:

– فقط شابان باريسيان.

أجلسهما في ركن هادئ، وقدم لهما الفاكهة والفطائر، وزجاجة شراب. كان الجو لطيفا ولم يهتم "رومان" بالنظر سوى لرفيقته.

لقد كانت "فاني" ساحرة. كانت سعيدة بهذه السهرة التي بدأت توا، وتوردت وجنتاها، ولمعت عيناها الخضراوان من السعادة. كانت قد ارتدت بلوزة بسيطة تكشف عن رقبتها، وجيب جميلة. لم يستطع "رومان" أن يمنع نفسه من النظر إليها في إعجاب، ولم يفت كثير من الوقت حتى لاحظت نظراته إليها.

سألته في دلال:

– هل أروق لك؟

لم تعجبه صيغة سؤالها، وتركها تخمن ذلك. همست:

– ماذا ستتصور؟

عض شفته. إن "فاني" تقرأ ما بداخله كأنه كتاب مفتوح أمامها.

– في الواقع، في ذهني صورة أخرى لك.

– أردت إثارتك يا عزيزي "رومان".

في قرارة نفسها كانت "فاني" سعيدة برد فعل الشاب. لقد كانت حتى الآن مثالا للحكمة، ولكنها شعرت فجأة بأنها تريد أن تكون صورة أخرى، وبأن سنواتها العشرين تتفجر. الغزل؟ إنها تعرف بالكاد ما هو الغزل. إن حياتها في "ترياس" منعزلة إلى حد كبير. ذات مساء قبلت دعوة على حفل سينما، ولكن انتهت السهرة بشكل سيئ في "نيم". على الرغم من ذلك، لقد كانت سعيدة بركوب دراجة "كلود" البخارية. ولكن في القاعة عندما أطفئت الأنوار وجدت صعوبة في أن توقف الشاب الذي تطاول عليها بيديه.

لم تشعر بالأمان إلا عندما هربت تاركة الشاب في مكانه، وعادت إلى البيت في تاكسي. في اليوم التالي تبعها "كلود" وهو يشعر بالخجل في شوارع "ترياس"، وكانت هي في هذه المرة التي أصرت على أن يأخذها إلى الحفل السنوي الراقص للبلدة، وفي هذا الحفل تركته يقترب منها أثناء الرقص، وفي نهاية السهرة عندما قادها إلى البيت قبلها. ثم أغلقت بسرعة باب السيارة قبل أن يتمادى.

ابتسمت عندما تذكرت هذا الغزل الذي لم يكن له مستقبل. وعندما نظرت إلى "رومان" وهو رجل في سن ناضجة أدركت

الفارق. إن هذا المهندس الشاب واثق بنفسه، وله ملامح جذابة، ولكنها كانت تعرف أن اللعبة معه خطيرة بشكل خاص؛ لأنه ليس الرجل الذي يترك نفسه لتتحكم فيه. ما عمره؟ ثلاثون؟ اثنان وثلاثون؟ ربما.. إن السنين قد صقلته، وزودته بالخبرات.

سألها في سخرية:

– هل أنت راضية عن نتيجة الفحص؟

أبعدت مقعدها في حرج. لم تنتبه إلى أنها تحملق إليه، ماذا سيظن بها؟

لم يستغل ارتباكها، وفي رفق وضع يده على يدها! لم يبدر منها أي رد فعل.

– أنت جذابة جدا يا "فاني".

رفعت كتفيها.

– أعتقد أن لديك الكلمات المناسبة لمغازلة النساء.

سألها:

– لماذا تقولين ذلك؟

– أنا لا أتوهم ذلك. هل تعتقد أنني مخطئة؟

– وماذا لو كنت صادقا؟ وإذا كنت تعجبينني حقا؟ إذا كنت منجذبا إليك حقا؟

ضغط على يدها بقوة. إنه يغازل "فاني" كما اتفق مع "كلودين"، ولكن هل هذه الكلمات حقا هي ما أوصته بها "كلودين"؟ هل يفعل ذلك فقط لينفذ رغبة الأمازونية التي في "كارتاچان"، ويربت هذه اليد المستسلمة ويشعر بالرغبة في أن يقول لها المزيد من الكلمات الحانية؟ في قرارة نفسه كان يعرف أن الإجابة هي لا. إن جمال رفيقته يبهره، ولقد نسي مهمته

تماما، مهمة لم يشعر بالحماس أبدا تجاهها. عندما قبلها كان ضعيفا، وهو غاضب على نفسه لذلك. إنه ليس الرجل الذي يستطيع أن يلعب دورين.

ولكن كانت "كلودين" قوية، وعرفت كيف تؤثر عليه خلال تلك الليالي الحميمة التي قضاها معها. نشأت حرب ضارية في قلب "رومان". "كلودين" و"فاني" امرأتان مختلفتان تماما و...

أدركت "فاني" أن "رومان" منشغل، وشكت في أن تكون هي محور أفكاره. قالت في نفسها: «امرأة أخرى». ودهشت لشعورها بالكراهية تجاه هذه المجهولة التي قابلت "رومان" قبلها. هل تطلب منه أي تفسيرات؟

ترددت في أن تكشف له عما تفكر فيه، ثم فجأة ألقت إليه هذا السؤال:

– تبدو مفكرا. هل تشعر بالندم؟

– ماذا تقصدين بذلك؟

– ألا توجد امرأة تنتظرك في مكان ما، في "كارتاجان" مثلا؟

نجح في أن يسيطر على نفسه وأن يخفي اضطرابه.

– ماذا تعتقدين يا "فاني"؟ أنا أعزب، وليس لي أي ارتباطات، وكذلك، أنا لست رجلا تحبه النساء.

– هيا.. لا تكن متواضعا.

سألها:

– هل أروق لك؟

تراجعت.

– لن أقول لك ذلك. لقد تعرفنا توا، وأنا لا أؤمن بالحب من أول نظرة.

هل شعر بهذا الحب تجاه "كلودين"؟ نعم بدون شك. إنه

يتذكر أنه تأثر بها بشدة عندما رآها أول مرة منذ عام تقريبا.

ذات مساء بينما كان في مكتب "جان دو سان أماند" في "كارتاجان" رأى الفتاة الشابة تدخل. كانت قد انتهت توا من دراستها في "بوجوتا"، وجاءت لتستقر نهائيا في كارتاجان". تعارفا ثم نظرت إليه بعين فاحصة قبل أن تستدير وتغادر الحجرة دون أن تضيف كلمة واحدة. رآها في اليوم التالي ولكنه لم يستطع أن يقترب منها. وبعد بضعة أيام بينما كان عائدا من نزهة على ظهر الحصان رآها على ظهر مهرها. سارا جنبا إلى جنب خلال كيلو متر. تكررت لقاءاتهما، ونشأت بينهما صداقة تخللتها العواصف في بعض الأحيان. لقد لاحظ أن "كلودين" ليست فتاة كالأخريات، ثم حدثت وفاة "جان"، وزيارة المحامي، وهذه الليلة المشهودة التي تحولت فيها إلى عشيقته.

صب الشراب في الكوب وتأمل لونه قبل أن يرتشفه.

– إذا كنت قد أحسنت الفهم يا "فاني" فأنت لست عاطفية.

– لماذا تقول ذلك؟

– أنت لا تؤمنين بالحب من أول نظرة، ويبدو أنك لا تهتمين بأمور الحب.

بقيت مفكرة لحظة قبل أن تجيب.

– ربما لا تكون هذه سوى الصورة الخارجية.

سألها:

– لكن أي نوع من النساء أنت إذن؟

– هذا ما عليك أن تكتشفه إذا أردت. ولا أنوي أن أسهل عليك هذه المهمة.

مال نحوها دون أن يكترث بالمجاورين الذين ينظرون إليهما،

والذين وصلت إلى مسامعهم عباراتهما الأخيرة.

– "فاني" كفي عن هذه اللعبة. أنت فتاة جذابة، وتعرفين ذلك جيدا.

في الواقع كانت تفتقر إلى ثقتها بنفسها، ولقد لاحظ "رومان" ذلك. أضاف:

– إذا كنت لا تعرفين فدعيني أخبرك.. عندما يراك أحد تتنازعه رغبتان لا تتناقضان: الأولى أن يحميك، والثانية أن يحتضنك بين ذراعيه.

سألته في تحد:

– في هذه اللحظة؟

ساد الصمت وتملكته العاطفة:

– أنت شيطان صغير يا "فاني"، لن أجيب بعد ذلك إلا في حضرة المحامي.

قدمت إليهما الحلوى، وبعد نظرة أخيرة إلى الوادي الذي خيم عليه الليل في هذه اللحظة سلكا الطريق إلى الـ"ميكولين" وبعد قليل توقفت السيارة البيجو" في الفناء أمام بوابة المنزل، وكانت "تيريز" قد تركت مصباحا واحدا مضاء في المطبخ حيث وصلت أشعة الضوء شاحبة إلى الحديقة، وكان الماء يندفع في النافورة التي تتوسط الفناء، واهتزت أفرع الأشجار تحت نسمة رقيقة.

قالت "فاني" وهي تمد يدها إلى "رومان":

– شكرا على هذه السهرة الجميلة.

تظاهر "رومان" بانه لا يرى يدها. لقد كان متأثرا جدا إنه منجذب تماما إلى هذه الابتسامة الرقيقة، وعينيها الخضراوين اللتين تنظران إليه في صدق، عينان ضاحكتان تغوصان مباشرة في عينيه. لم يشعر سوى بأمنية واحدة وهي أن يتذوق حقيقة

هاتين الشفتين اللتين تشبهان ثمرة فاكهة لذيذة، وأن يضمها بين ذراعيه في حنان.

وكانها فهمت ما يدور في رأسه. ابتعدت قليلا وبدت كأنها قد تسمرت في مكانها. كانت مقسمة بين الخوف الذي يوحي به إليها "رومان"، والذي أدركت شدة رغبته ورغبتها هي نفسها في أن تتعلق بحضنه. معضلة تواجهها لأول مرة في حياتها ولا تعرف كيف تتصرف.

أدرك "رومان" بدوره أنه ليس من اللياقة أن يستغل قلة خبرتها، وآثر أن ينسحب. عندئذ سمعا صوتا قادما من المنزل، إنها "تيريز" بدون شك تترقب في حجرتها عودة "فاني"، فجأة لاذا من جديد بمجموعة نباتات الزينة حيث ساد ظلام كامل. وتقابلت شفاههما في قبلة طويلة، وعندما افترقا لم يتفوها بكلمة واحدة. لقد تذوقت "فاني" توا بشائر الحب لأول مرة.

همس "رومان":

– عزيزتي.

أراد أن يأخذها من جديد بين ذراعيه ولكنه لم يقابل سوى الفراغ. كانت قد ابتعدت. ثم سمعها وهي تهرب والباب يصفق توجه إلى سيارته وسلك طريقه إلى "نيم".

عندما وصل إلى فندق "الإمبراطور" صعد إلى غرفته، وشعر برغبة كبيرة في أن يسمع صوتها في التليفون. طلب رقمها مخاطرا بأن تجيبه "تيريز" ولكنها كانت هي من أجابه.

– آلو.

– أنا "رومان".

قابله الصمت على الطرف الآخر من الخط. ولكنه كان يعرف أنها تسمعه. كان يسمع صوت تنفسها.

– "فاني" أريد أن أراك على الفور.

لقد تحول بداخله الرجل الساخر إلى رجل يحب. إن كل ما يهمه الآن هو أن يرى تلك الفتاة الجميلة ذات الشعر الأسود التي تستمع إلى كلماته على بعد بضعة كيلو مترات.

– "فاني" أجيبيني أرجوك.

ثم سمعها تهمس:

– أنت مجنون.

– نعم يا "فاني" إني مجنون بك، أريد أن أراك على الفور؛ لأقول لك ذلك. لا تقولي لا. لا تصدميني، منذ قليل كنت في غاية الرقة معي، ولا تستطيعين أن تنكري ذلك.

ساد صمت طويل ثم أعطته الجواب الذي كان يتمناه من كل قلبه.

– تعال.

*****

– آلو؟ المحامي "دوريل"؟

– هذا أنا.

– أريد أن أراك على وجه السرعة. إذا كنت أسمح لنفسي بالإصرار فذلك للأهمية.

– إيه.. حسنا، لنقل بعد ساعة.

وضع "رومان" السماعة وبقي مفكرا. هكذا يتحكم القدر في الأحداث، ولقد اختار. ومنذ أن رأى "فاني" لأول مرة في اليوم الذي عبر فيه عتبة الـ"ميكولين" أدرك أنه سيقع في حبها. ألم يأسره- بمجرد رؤيتها- جمالها الهادئ، والفرحة التي تملأ وجهها، والسحر المنبعث من ابتسامتها، وكل هذه الهالة التي

تحيط بها.

ولكن الذي جعله يقرر أن يخطو هذه الخطوة بشكل خاص هو تلك السهرة التي قضياها معا في "كورنيلون" خلال تناول العشاء. كان حديثهما شائقا. لقد بحثت كل روح عن الأخرى والتقتا، كانا يتعارفان وهما يعرفان أن في هذا التعارف عذابهما، وأن الأمر سينتهي باقتراب الواحد من الآخر أكثر فأكثر، لكن ألم يخلقا لبعضهما؟ بين الفتاة القروية الرقيقة الذكية، والرجل ذي الخبرات قد مر التيار منذ أول لحظة.

كالمجنون وثب إلى سيارته، وقطع بسرعة العشرين كيلو مترا التي تفصله عن "ترياس". كانت تنتظره في الحديقة عند المدخل الكبير، وفي ضوء مصابيح السيارة شاهد "فاني" تقف ساكنة في مكانها ترتقب مجيئه، وعندما نزل من السيارة أسرعت إليه.

كانت "فاني" سعيدة جدا. ومن جديد وجدت نفسها أمام الرجل الذي تأكدت من أنها تحبه. تذكرت ذلك الحلم الذي عاشته تحت شجرة الكريز، وعادت إلى ذاكرتها صورتها وهي تجري هربا من ذلك الفارس الذي يرتدي الملابس الداكنة، والذي كان يلاحقها حتى وصل إليها دون أن تشعر. لكن هل كانت تهرب منه حقا؟ كانت تسأل نفسها هذا السؤال وهي تنظر إلى عيني "رومان". تذكرت الحلم الذي قطع قبل أن ينتهي، ولكنها الآن تستطيع أن تتخيل النهاية المنطقية. كان سيلحق بها، وكانت ستستسلم له كما تفعل الآن.

همس "رومان":

– إني أحبك.

أغمضت عينيها من السعادة. كانت هذه الكلمات المعسولة

لها فعل السحر، وكانت تعرف أنها لن تسأم أبدا من سماعها، لقد عاد "رومان" ليقول لها تلك الكلمات كأنه لا يستطيع إلا أن يبوح بحبه الوليد. إنها كلمات نابعة من قلبه. احتضنها في حنان وأسندت رأسها على كتفه. فتحت "فاني" عينيها وارتسمت ابتسامة مشرقة على شفتيها: ابتسامة سعادة وانتصار. إنها الآن تعرف أنها قد غزت قلب هذا الرجل الساحر. لقد أصبح كل منهما للآخر.

بعد أن تركها "رومان" وصعدت إلى غرفتها تأملت صورتها في المرآة. شعرت كأنها ترى وجها جديدا لها: وجها مشرقا بالسعادة والحب.

الفصل السادس

استقبل "أندريه دوريل" الرجل الشاب في مكتبه بحرارة. ساله مبتسما:

– هل قضيت سهرة سعيدة يا عزيزي "رومان"؟ قالت لي "تيريز" إنك دعوت "فاني" إلى العشاء.

نظر "رومان" إلى المحامي في قلق ولكن سرعان ما اطمأن؛ لم يكن هناك أي مكر في هذا السؤال. تمتم بإجابة لم يسمعها "دوريل".

– إذن أي ريح طيبة أرسلت بك إلينا؟

تردد المهندس الشاب ثم قال:

– يا سيدي، هناك اعتراف أريد أن أفضي به إليك.

ساله المحامي في حيرة:

– بم يتعلق هذا الاعتراف؟

زفر "رومان":

– إنها قصة طويلة. وهي ليست سهلة حتى أرويها؛ لأني العب بها دورا ليس طيبا. لكني أتكلم الآن عن الماضي، لأن المهمة التي عهد بها إلي تشعرني بالاشمئزاز، وإني لغاضب على نفسي؛ لأني أردت السوء بـ"فاني".

عبس وجه السيد "دوريل".

– إني أسمعك.

روى له المهندس كل شيء إذن: زيارته إلى محامي "بوجوتا" مع "كلودين"، وقراءة الوصية، واكتشاف وجود "فاني"، وغضب "كلودين" عندما عرفت أن هناك من سيقتسم معها

الميراث، والخطة التي رسمتها للاستيلاء على حق "فاني" في الميراث.

وهل وافق "رومان" على الاشتراك معها في هذه الخطة؟

كانت إجابته بالنفي. في الواقع لقد كان سعيدا بالفرصة التي كانت أمامه لمغادرة "كولومبيا"، والابتعاد فترة عن "كلودين". ولقد كان المهندس الشاب صادقا في هذا القول. لقد كانت "كلودين" تجتذبه وتخيفه في نفس الوقت؛ ولهذا السبب تظاهر بانه يوافقها على خطتها.

كلما تقدم في روايته لاحظ أن المحامي يهز رأسه كأنه يصدق ما يقول. وعندما انتهى نهض "أندريه" من مكانه، وتوجه نحو الدولاب، وأخرج منه ملفا كتب عليه «أعمال "فاني دو سان أماند"». ملف جديد فتحه قبل بضعة أيام فقط عندما عرف بوجود هذا الميراث.

عاد ليجلس أمام مكتبه وأخرج ورقة من الملف. كان خطابا. ثم نظر إلى "رومان".

قال في جدية:

– إن ما رويته لي توا لا يدهشني على الإطلاق، لقد كنت مستعدا لذلك.

عندما نظر إليه الشاب ببعض الدهشة قال المحامي:

– عندما أرسل إليّ زميلي في "بوجوتا" نسخة من الوصية عرفت أن "كلودين دو سان أماند" كانت على قيد الحياة، وأنها واحدة من الورثة. ولكن بالإضافة إلى هذه الوثيقة الرسمية كان هناك خطاب، هذا الخطاب. إنه مكتوب باللغة الإسبانية، ولقد ترجمته على الفور. وعرفت من خلاله أشياء كثيرة غير طيبة

وجاء اعترافك ليؤكد ما كنت أشك فيه.

كان "رومان" مازال حائرا.

– لم تكتف "كلودين دو سان أماند" بالخطة التي رسمتها لتستولي على كل الميراث، وأسندت إليك دورا بها. لقد فكرت في نفس الوقت بانه قد يكون هناك وسيلة أسرع لتصل إلى أهدافها، وبدون علمك ذهبت لمقابلة المحامي لتعرض عليه إخفاء الوصية. ولو اختفت الوصية فستكون الوريثة الوحيدة للثروة بما أنه لا أحد يعرف بوجود "فاني" في "بوجوتا". ولكن لم يطعها المحامي ثم أرسل إليّ هذا الخطاب الذي روى لي فيه ما حدث. ولقد حذرني فيه أيضا.

لقد صعق "رومان"، إن شر وجشع "كلودين" قد تخطيا كل تصوراته. إن هذا الجشع يصيبه بالاشمئزاز.

سأله:

– و"فاني"؟

أغلق المحامي الملف، ووضعه في الدولاب.

– "فاني" لا تعرف شيئا عن كل هذا، فقط أنا وأنت و"تيريز" الذين نعرف بوجود "كلودين" وخطرها الذي تهدد به "فاني"، إنها تعرف فقط أن والدها قد مات منذ شهرين في "كولومبيا" وليس في "فرنسا" والدها الذي تركها منذ سبعة عشر عاما، وأنها قد ورثت عنه ثروة كبيرة. وهذا كل شيء.

نهض "رومان" بدوره وراح ينظر مفكرا عبر النافذة.

– ستعرف بالتأكيد يوما ما.

أجاب "أندريه دوريل":

– في أبعد وقت ممكن. وإني أعتمد عليك حتى تبقى في جهل

عن كل شيء. حاول أن تثنيها عن رغبتها في الذهاب إلى "كولومبيا" وساستطيع أن أسوي مسالة الميراث مع زميلي المحامي.

همس "رومان":

– سأبذل قصارى جهدي.

اقترب منه المحامي:

– إنك لم تكشف لي عن السبب الذي جعلك تتخلى عن خطة "كلودين".

نظر الرجل الشاب إلى عيني "دوريل" مباشرة، وقال في بساطة:

– إني أحب "فاني" وليس لي في الحياة سوى رغبة واحدة هي أن أتزوجها. أما فيما يتعلق بالميراث فهذا لا يهمني. إن "فاني" التي عرفتها تعيش في منزل ريفي بسيط بعيدا عن الضوضاء وهذا يكفيني.

وضع المحامي يده على كتف المهندس الشاب. وقال:

– لقد كنت أشك في ذلك. ولكني يا "رومان" ساطلب منك أن ترعاها بكل ما تستطيع: أسعدها، لقد فعلت أنا و"تيريز" كل ما نستطيع لإسعادها ولكن كان ينقصها أمها وأبوها. إنها حساسة جدا، وأخشى عليها من السحب التي بدت في الأفق. إنها تحتاج إلى أن تستند إلى أحد، وإني أعتمد عليك. لا تتركها في الأوقات العصيبة.

أجاب "رومان":

– أعدك بذلك.

خرج "رومان" من مكتب المحامي، وقلبه مرتاح. لقد كان سعيدا لأنه أخبره بكل شيء، ولقد جاء خطاب التحذير الذي أرسله محامي "بوجوتا" في وقته ليزيل أي شك محتمل من

جانب "دوريل". الآن جميعهم يعرفون الحقيقة. عندما ستستنتج "كلودين" أن "رومان" قد تخلى عن تنفيذ خطتها ستبحث عن وسائل أخرى، وستحاول الانتقام. ويجب عمل أي شيء لحماية "فاني".

"فاني"... إنه ينطق هذا الاسم بحنان بالغ... منذ البارحة، منذ أن اعترف كلاهما للآخر بحبه وهو يعتبرها جوهرة ثمينة يجب الحفاظ عليها. كان متعجلا لشيء واحد فقط هو: أن يجدها من جديد بين ذراعيه؛ ليقول لها الكلمات الحانية، ويطبع على خدها المغطى بخصلات شعرها المتمردة قبلاته.

سلك طريق "ترياس". إنه هناك في الـ"ميكولين" حيث توجد السعادة.

قابلته "تيريز" بطريقة أقل حدة.

– "فاني"؟ لابد أنها تحت شجرة الكريز.

أسرع إلى الحقل، وبعد قليل رأى الفتاة الشابة. كانت تجمع الفاكهة، وتضعها في السلة، وكانت في هذه اللحظة منشغلة جدا حتى إنها لم تسمعه عندما جاء. وضع يديه على عينيها، صاحت في سعادة:

– "رومان".

خشي عندما رآها أن يجدها تشعر بالإحراج لما حدث بينهما البارحة ولكنه على العكس وجدها مشرقة. وقد أصبحت عيناها أكثر خضرة ولمعانا وتكشفان عما بداخلهما من سعادة.

– أوه "رومان" لقد كنت أنتظرك بفارغ الصبر. لماذا تأخرت في الحضور؟

– كان لدي بعض الأعمال التي أسويها في "نيم".

– ولكنك الآن هنا، وإني سعيدة لذلك، كم هي جميلة السعادة! كم هو جميل أن تحب، وأن تعرف أن هناك من يحبك! إني لم أتصور أبدا أن الحب جميل إلى هذا الحد.

أشارت إليه بالجلوس على الحشائش بالقرب منها.

– تعال بالقرب مني يا عزيزي لنفكر في خطط المستقبل.

تردد قليلا. هل له الحق في أن يفكر معها في مستقبل يجمعهما بعدما حدث بينه وبين "كلودين"؟ ولكن الحب هو الأقوى.

لم يعد هناك شيء يهمه سوى "فاني" التي تنظر إليه في ثقة. ودعا الله بالا يأتي المستقبل بما يكدر توافقهما.

نظرت الفتاة الشابة إلى عش نمل عند قدميها والنمل يروح ويجيء بدون تعب؛ ليوفر الحياة للنمل الذي بقي بالداخل.

قال "رومان" مازحا:

– هل هذا يوحي إليك بشيء؟

– إن ما أحبه في النمل هو شجاعته ومثابرته أيضا. لقد حدد لنفسه هدفا، ولا شيء يستطيع أن يثنيه عن هذا الهدف. أعتقد أنني أشبه هذا النمل بطريقة ما. إني أكون مثابرة عندما يلزم الأمر.

– وأنا الذي كنت أعتقد أنك ضعيفة.

ضحكت:

– لا يجب أن تنخدع بالمظاهر! إني أقوى مما تعتقد. عندما أقرر شيئا ما نادرا ما أتراجع. وعلى ذلك...

سألها "رومان":

– ماذا؟

نظرت في عينيه مباشرة:

– وعلى ذلك لقد قررت أن تكون أنت رجل حياتي، ولا شيء سيغير هذه الفكرة حتى لو سببت لي ألما.

– ولكن لماذا هذه الأفكار السوداء يا عزيزتي؟ إني لا أفكر سوى في إسعادك.

– الله يسمعك يا "رومان"؛ لأنك لو لم تفعل فلن أسامحك أبدا. لن أتزوج رجلا غيرك، ولكن سيكون كل شيء قد انتهى بيننا إلى الأبد.

ارتعش "رومان" عندما فكر في "كلودين" وفكرها الانتقامي، لابد أن يفعل كل ما بوسعه حتى يمنع لقاء السيدتين يوما ما. ولكن من حسن الحظ أن "كلودين" كانت على بعد أميال من حبيبته.

– تعرفين يا "فاني" أني لم أتصور أبدا قبل أن أقابلك أنني يمكن أن أقع في الحب مثلما حدث لي. وكذلك أرجو ألا تنشغلي، أنت المرأة الوحيدة التي تشغل قلبي، ولن أتزوج سواك.

توردت الفتاة الشابة، وأخفت وجهها في كتفه. إنها تشعر بالأمان وهو إلى جوارها.

– إني محظوظة؛ لأني أحببتك يا "رومان".

نظر "رومان" حوله في قلق.

– قد يرانا أحد ونحن متعانقان.

قالت:

– وماذا في ذلك، أليس كلانا للآخر؟ إني أريد أن أصرخ بين كل البيوت بأنني أحبك، وأنني سعيدة بذلك.

كانت الطبيعة تشاركهما هذه اللحظة المشرقة. بعيدا في

السماء نشرت الشمس أشعتها الذهبية، والعصافير- أصدقاء "فاني" - قد وقفت تغرد فوق الأغصان، وتشهد على حبهما.

بقيا فترة طويلة صامتين ثم همست "فاني":

- شكرا يا "رومان"؛ لأنك تحبني كل هذا الحب.

ضحك "رومان" ثم احتضنها بقوة. قهقهت بدورها وقالت:

- لقد قلت لك من قبل إنك مجنون، أوه يا "رومان" يا عزيزي. إنه أنت من كنت أنتظر في أحد الأحلام التي رأيتها تحت هذه الشجرة، كان هناك فارس يتبعني ثم اختطفني. هذا الفارس لم يكن سواك ووجهه هو وجهك، والآن أستطيع أن أطلق عليه اسما وهو اسمك. نعم لقد خلقنا لنعيش معا؛ لنعيش الحب الكبير. الحب الذي يستحق أن نحارب من أجله بكل قوتنا. "رومان" كم أشعر بأنني قوية! هذه المعركة أشعر وأعرف أننا لن نخسرها طالما كنا متحدين كما نحن الآن. لا شيء يستطيع أن يحدث لنا الآن.

تأثر "رومان" بشدة عندما سمعها تتفوه بهذه الكلمات. لقد منحته "فاني" قلبها، والآن تمنحه روحها وهذا كثير. هل هو أهل لكل هذه العطايا؟ هل من حقه أن يقبلها؟

مسح بسرعة كل الشكوك التي طرأت إلى ذهنه. إن هذه الفتاة تتمتع بإيمان قوي. إيمان يستطيع أن يزحزح الجبال، والآن لقد أصبح مقتنعا بأن طريقهما قد رسم مستقيما، ولا شيء يستطيع أن يحيدهما عنه.

تبادلا نظرة طويلة دون أن يتكلما. كل ما لم ينطقا به بعد قد قرأه كلاهما في عيني الآخر. أليس أمامها الأيام والليالي التي ستزيد من معرفة كليهما للآخر، تلك الأيام التي سيقتسمان

فيها الفرح والألم؟ إن كل شيء قد بدأ توا.

ذهب فكر "رومان" إلى "كلودين"، كيف استطاع لحظة واحدة أن يظن نفسه مغرما بها؟ إن المشاعر الذي اعتقد أنه يشعر بها تجاه "كلودين" ليس فيها أي شيء يقارن بمشاعره التي تربطه الآن بـ"فاني". إن "كلودين" بها قسوة وحدة ورغبة في التدمير لا يمكن لإنسان أن يحتملها، ولقد ندم بشدة؛ لأنه لم يع ذلك إلا متأخرا. "فاني" على العكس، كانت شخصية ودودا لها قلب وعقل يعرفان معنى الحب والعطاء، لقد كانت "كلودين" جافة كالطبيعة الجدباء على جوانب جبال "كولومبيا"، أما "فاني" فهي مثل رقة الريف ذي الطبيعة الحساسة الضاحكة. واحدة تحرقه بالصلب الأحمر المتوهج، والأخرى تجتذبه- دون أن تفعل أي جهد- بإشراقها.

وضعت أصبعها على أنف "رومان":

- أنت تفكر يا عزيزي.

أجابها بابتسامة وساعدها على النهوض. قال:

- ماذا عن "تيريز"؟

نظرت إليه دون أن تفهم.

قال:

- "تيريز" لا يجب أن تفهم شيئا.

- لكني يا "رومان" سأقول لها كل شيء! سأعترف لها بأننا متحابان، وأننا سنتزوج.

قال في إحراج:

- دعينا لا نتسرع. إن كل ما يحدث بيننا قد حدث فجأة وبسرعة؛ ويجب أن نأخذ بعض الوقت لنفكر.

سألته فجأة في قلق:

– فيم تفكر؟ هل أنت نادم الآن؟ بما أنني سعيدة فمن الطبيعي أن أفصح عن كل شيء، لا تنس أنها كانت لي بمثابة أمي.

كيف يفهمها دون أن يجرحها، إنه من الأفضل أن يتحدثا أولا مع المحامي عن مشاريعهما بسبب الخطر الذي تمثله "كلودين"؟

قال في ألم:

– تعرفين أن "تيريز" لا تحبني كثيرا. ربما من الأفضل أن تتركي لي الوقت حتى أزيل هذا الشعور الذي تقابلني به، لا أريد أن أفرض عليها بالقوة.

أذعنت:

– أنت على حق بدون شك. لنحتفظ الآن بسرنا. سنتعامل أمامها بشكل رسمي، وأخشى أن يصعب ذلك عليّ. تعال لنعود إلى البيت، لقد طلبت من "تيريز" أن تعد الطعام، ولا يجب أن نتركها تنتظر.

غادرا شجرة الكريز، وتوجها نحو الـ"ميكولين". فتحت "فاني" الباب وتوجهت نحو المطبخ الذي تنبعث منه رائحة طيبة.

وعلى أطراف أصابعها توجهت إلى حجرة الطعام وهو يتبعها. قالت في مرح:

– هذه علامة طيبة. إنها لا تسوي هذا الطبق إلا في المناسبات الكبرى. إن جاذبيتك الطاغية قد بدأت تحدث المعجزات.

عادت "فاني" من جديد إلى المطبخ محدثة صوتا في هذه المرة.

– نحن هنا يا "تيريز".

تمتمت الأخرى:

– لستما مبكرين! حسنا.. اذهبا واجلسا، إني قادمة!

أحضرت "تيريز" الطعام الشهي، ولاحظ "رومان" أن المربية لم تعد تنظر إليه بنفس الحدة. انقض الشابان على الطعام بينما عادت "تيريز" إلى المطبخ.

قالت "تيريز" في نفسها: «إن "فاني" لم تبد سعيدة أبدا مثلما تبدو الآن. ربما يكون هذا الشاب طيبا في داخله ربما أكون قد أخطأت آه. لقد تقدمت بي السن، وأصبحت عجوزا».

بينما كانت "تيريز" منشغلة بأفكارها كان "رومان" و"فاني" يلتهمان الطعام الشهي الذي أعدته. في مرح. لم يسمعا جرس التليفون. جاءت "تيريز" لتخبرها:

– إنه السيد "أندريه" ويريد أن يكلمك.

وعندما عادت "فاني" بعد قليل سألها "رومان":

– هل هناك شيء مهم؟

– لا. يريدني عمي أن أمر عليه لمقابلته بعد الظهر. لديه أوراق يريدني أن أوقعها بخصوص الميراث.

الفصل السابع

في مكتب البيت في "كارتاچان" كانت "كلودين" تعنف عامل التليفون المركزي:

– لقد طلبت منك منذ ساعة أن تعطيني أرقام تليفونات أكبر الفنادق في "نيم". كيف لم تتصل بي حتى الآن لتبلغني بها؟

على الطرف الآخر حاول العامل المسكين أن يجد أعذارا ولكنها كانت تسمعه بالكاد. وهددته بأن تشكوه إلى مديره.

منذ حوالي عشرة أيام لم تصلها أية أخبار من "رومان"، وأرادت أن تطمئن بأي ثمن. ماذا يحدث إذن في "ترياس"؟ لماذا لم يتصل بها؟ ما سبب صمته؟ هل فشلت خطتها؟ كانت غاضبة؛ لأنها لا تعرف شيئا، وكانت ثورتها شديدة على "رومان".

هل ستترك الجزء الأخير من الميراث يفلت من بين يديها ليذهب إلى "فاني دو سان أماند"؟ لعنت محامي "بوجوتا" الذي رفض أن يخفي الوصية. إنها تعتبره أحمق، لو قبل ما عرضت عليه كانت ستكافئه بسخاء ولكنها قد اصطدمت بحائط. لقد وضع ضميره فوق كل اعتبار.

سألت نفسها إذا كان قد أخبر أي شخص بالخطوة التي قامت بها، ثم رفعت كتفيها في سخرية. إن هذا المحامي يبدو أنه أحمق ولن تطرأ مثل هذه الفكرة على رأسه. هناك في "فرنسا" لابد أنهم منبهرون بهذه الثروة التي سقطت عليهم من السماء، ولابد أنهم يفكرون في كيفية استخدامها.

وعند هذه الفكرة تملكها الغيظ من جديد.

قالت في نفسها: «لا يمكن أن يلمسوا هذه الثروة».

نظرت إلى نفسها في المرآة ووجدت نفسها جميلة جدا. نعم، بعد قليل ستجد كل الرجال عند قدميها، الجمال والمال سيفتحان أمامها كل الأبواب، وستكون أخيرا جزءا من المجتمع الراقي الذي تحلم به. دون تردد ذهب "رومان" لينفذ ما طلبت منه، ولم يفهم أنه مجرد لعبة في يدها.

لتهدئ أعصابها أمسكت فرشاة، وأخذت تمشط في عناية شعرها الطويل. بمجرد أن يعود إليها "رومان" ظافرا ستجهز الحصان "دجانجو" للركوب، وسيذهبان من جديد في جولة مجنونة بطول الشاطئ. عندما يندفعان هما الاثنان يتلاشى أي شيء له أهميته، لا يهم سوى السعادة التي يشعر بها كلاهما.

أخيرا دق جرس التليفون، أمسكت السماعة.

قال الموظف:

– لقد حصلت على المعلومات التي طلبتها. ولكني حريص على أن أخبرك أن الساعة الآن العاشرة مساء.

قالت في حدة:

– حسنا، وماذا تريدني أن أفعل؟

– بفارق التوقيت ستكون الثالثة صباحا في "فرنسا".

– هذا لا يهمني.

زفر الموظف أمام هذه الحدة، وأعطاها المعلومات التي طلبتها.

قالت "كلودين":

– حسنا. لنبدأ بالرقم الأول في القائمة، فندق "الإمبراطور". اطلبه لي على الفور.

لقد كان فندق "الإمبراطور" هو الاختيار الصحيح. كان "رومان" غارقا في النوم. سمع صوت التليفون كأنه صفارة

مركب ترن على فترات متقطعة، وتخيل أن الضباب كثيف، وأن الباخرة تحاول أن تشق لنفسها طريقا. وبعد قليل تحقق من أنه جرس التليفون الذي يرن على الطاولة الصغيرة. وثب من فوق السرير ليمسك بالسماعة. من الذي يتصل به في هذا الوقت المتأخر؟ على الفور شعر بالقلق:

هل حدث مكروه لـ"فاني"؟

أمسك السماعة، وسمع صوت عاملة التليفون ناعسا يقول:

– اتصال من مكان بعيد يا سيد "بلشاس" من "كولومبيا".

"كولومبيا"؟ فهم على الفور من صاحب هذا الاتصال. لا يمكن أن يكون شخص آخر سوى "كلودين".

كان الصوت واضحا جدا، وشعر "رومان" كأن السيدة الشابة موجودة في الحجرة المجاورة. بدت ثائرة ولكن لم يكن هناك وسيلة لتثنيه عما قرر.

– "رومان" ماذا يحدث؟ ماذا تفعل؟

قال "ساخرا":

– منذ لحظة واحدة كنت نائما وأنت أيقظتني.

– أنت تسخر مني. لم تصلني أي أخبار منذ عدة أيام وهذا يثير قلقي. أريد أن أعرف أين وصلت من خطتنا.

سألها في براءة مصطنعة:

– أي خطة؟

صاحت في ثورة:

– "رومان" كف عن التظاهر بالغباء! لقد ذهبت إلى "نيم" لهدف محدد، وأريدك أن تخبرني بما فعلت.

أجابها:

– لتعلمي إذن أنه ليس هناك ثمة خطط ولا مشروعات، لم يعد هناك أي شيء على الإطلاق. لقد نجحت في تغميتي بعض الوقت، ولكن الآن كل شيء انتهى. لتكتفي إذن بنصيبك في الميراث ودعي "فاني" وشأنها؛ سيكون ذلك من الأفضل لك.

– لقد أغوتك "فاني" أليس كذلك؟ هذا شيء طبيعي. لقد وقعت في حب هذه الحمقاء. لقد كنت غبية، كان يجب أن أفكر في ذلك.

قال بصوت جاف:

– كفى!

لقد بدأ يثور. كان يرفض أن يتركها تهين "فاني".

– لتدركي أنك لا تصلين حتى إلى كعبها يا "كلودين". إن لها خصالا لا تستطيعين أن تدركيها. كل ما نطلبه منك أن تنسي من الآن فصاعدا وجودنا، بقي لك المنزل الكبير في "كولومبيا" وهذا يكفيك.

– هل تعتقد أنني ساتركك تفلت؟ لا تتوهم، لن يمر الأمر بهذه البساطة. سانتقم.

أجاب "رومان" في هدوء:

– لا شيء يستطيع أن يقف أمام حبنا. إني أحب "فاني" وهي تحبني، خذي نصيبك وابتعدي.

قبل أن يضع السماعة لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يلقي إليها بهذه العبارة الأخيرة:

– لا طائل من أن تحاولي مرة أخرى توريط محامي "بوجوتا" معك في خطتك الدنيئة. لقد أخبرنا بإسهاب عما بدر منك.

وضعت السماعة بحدة. هكذا قد خانها "رومان"، والجميع يشكلون كتلة ضدها، حتى هذا المحامي في "بوجوتا" الذي فكر

في أن يخبرهم بما طلبت منه! بقيت "كلودين" في المكتب تفكر بمفردها. رأت حلم الثراء الكبير ينهار بسبب هذه الحمقاء الصغيرة التي عرفت كيف تجتذب "رومان" إلى شباكها، والذي سقط كأنه طالب مبتدئ.

كان "دچانجو" ينتظر. نادت الخادم، وطلبت منه في حدة أن يساعدها على ارتداء الحذاء. ثم توجهت نحو الإصطبل حيث جهز السائس الحصان. أدرك الحصان الكريم على الفور أن سيدته لم تكن في حالتها الطبيعية فسار في هدوء على الشاطئ. وبينما كانت "كلودين" على ظهره كانت تفكر في انتقامها الذي أرادت أن يكون قويا، وعندما وصلت بعد ساعة إلى البيت كانت قد هدأت، وعندما وصلت إلى المكتب ارتسمت ابتسامة على شفتيها. نعم سيكون انتقاما لذيذا مع الخطة التي تصورت أنها ستستطيع من خلالها أن تضرب عصفورين بحجر واحد.

بحثت عن رقم تليفون في الدليل، وأخذت التليفون لتطلب رقم مكتب سفر في "بوجوتا".

*****

ممددا على سريره وجد "رومان" صعوبة في العودة إلى النوم. كان لايزال تحت تأثير هذه المكالمة التليفونية التي كان يتوقعها منذ وقت طويل، والتي لم تتأخر. لقد كان يخشى رد فعل "كلودين" وهو يعرف أنها على استعداد للقيام بأي شيء، وأسف لأنه أثار غضبها عندما اعترف لها بحبه لـ"فاني". إن هذا النوع من الاعترافات تقبله المرأة بصعوبة.

زفر:

- خسارة!

لقد كان كل شيء في أفضل حال منذ بضعة أيام، على الرغم من شعوره بأن هناك شيئا ما يثير قلق "فاني" منذ لقائهما تحت شجرة الكريز. بعد الظهر ذهبت إلى موعدها مع المحامي الذي طلب لقاءها على وجه السرعة. وفي اليوم التالي لاحظ أنها كانت مختلفة. دائما حانية، دائما ودود ولكن مرحها لم يكن في نفس إشراقه. لقد لاحظ أكثر من مرة على وجهها علامات القلق وهذا لم يكن معتادا لديها. يبدو أنها تحمل سرا ثقيلا عليها. بالتأكيد لقد حاول أن يعرف أكثر ليطمئن.

ذات يوم ذهبا للنهر للسباحة، وهناك بينما جلسا تحت الشمس سألها:

- قولي لي كل شيء يا "فاني".

نظرت إليه في دهشة:

- لا أفهم ماذا تقصد يا "رومان". فسر، ماذا تريد؟

- لقد شعرت بأنك مختلفة منذ بضعة أيام، يبدو أن هناك سرا يؤرقك، أو أن هناك شيئا يثير قلقك. أرجوك يا عزيزتي، يجب أن تثقي بي، ولا يجب أن يفصل بيننا شيء. إذن، أرجوك أفضي إليّ بكل ما في قلبك.

بدت مترددة وعلى الرغم من ذلك أجابت بالنفي.

- أنت مخطئ يا "رومان" لا شيء يفصلنا. اطمئن، مشاعري تجاهك لن تتغير أبدا. هل تعتقد أنني امرأة تغير رأيها بهذه السرعة؟ لا، إني أحبك دائما. وإذا كنت تجدني مختلفة قليلا فذلك بدون شك لأني أفكر في حياتنا، ولأنني منشغلة بمستقبلنا.

– لكنه معلوم يا "فاني"! ألم نقرر أن نتزوج؟

– إنه معلوم، هذا صحيح. ولكن قبل أن نصل إلى هدفنا يجب أن نتخطى بعض العوائق.

– ماذا تقصدين بذلك؟

ترددت لحظة قبل أن تجيب:

– لست أدري بالضبط ولكني قلقة، لنقل إنه نوع من الحدس، أخشى أن يجلب علينا هذا الميراث بعض المضايقات.

صاح:

– دعينا لا نتحدث عن هذا الميراث، لنترك عمك إذن يهتم بكل الإجراءات. دعينا لا نفكر إلا في حبنا.

في حنان ربتت شعر "رومان":

– هذه أمنيتي أيضا. ولكني أخشى ألا يكون ذلك ممكنا على الأقل الآن.

حاول أن يصر على معرفة المزيد مما يشغلها ولكنه لم يستطع، وكان يعرف أنها لم تقل كل شيء. نزلا إلى النهر ليسبحا من جديد قبل أن يعودا إلى المنزل ويلوذا بظل شجرة الكريز. وهناك أخذا يتحدثان طويلا في عدة موضوعات، وبعد وقت قليل شعر "رومان" بالاطمئنان. هل كان التغيير الذي أحسه لدى الفتاة الشابة ليس إلا ثمرة تخيلاته؟ وانتهى به الأمر بأن اقتنع بذلك.

لم يكن "رومان" هو الوحيد الذي لاحظ القلق الذي على وجه "فاني". لقد لاحظت "تيريز" أيضا أن صغيرتها ليست كما كانت من قبل، وذلك منذ فترة طويلة، ولم يكن في ذلك ما يشعرها بالاطمئنان. منذ بضعة أيام قبلت وجود المهندس الشاب؛ لأنها أدركت أن وجوده يضفي السعادة على صغيرتها.

ولكن اختلف الأمر فجأة. بدت لها "فاني" مشغولة وهي لا تستطيع أن تشك في حدسها. أليست هي "تيريز" أفضل من يستطيع أن يفهم "فاني"؟

في المطبخ كانت تسترجع الذكريات المؤلمة. إن الأشياء الخطيرة التي أخبرها بها "أندريه دوريل" مازالت تدور في رأسها. هكذا كانت "كلودين" تخطط لإيذاء "فاني"، لماذا كتب على صغيرتها ألا تعرف طعم السعادة؟ كلما اقتربت منها تهرب من بين أصابعها كماء النهر، على الرغم من أن لديها كل ما يجعلها سعيدة بما أنها تحب "رومان" ويبدو أن هذا الحب متبادل.

همست:

– كل هذا لا ينذر بالخير! مسكينة يا "فاني"! متى تتحرر من هذه اللعنة التي تلاحقها؟ متى ستتركها قوى الشر وشأنها؟

مسحت الدموع التي سالت من عينيها. شعرت فجأة بثقل سنوات عمرها التي تحملها على كاهلها. كانت تعرف أنها قريبة من النهاية ولكنها أرادت أن تتماسك. قبل أن تنطفئ شمس حياتها يجب أن تحافظ حتى النهاية على عهدها الذي أخذته على نفسها أمام "آلين دو سان أماند" وهي على فراش الموت وهو حماية "فاني" أطول وقت ممكن حتى تستطيع أن تعتمد على جناحيها وتحلق في سماء الحياة عندئذ، وفي هذه اللحظة فقط تستطيع أن تختفي من حياتها. وعندما كانت ترى اهتمام "رومان" بها كانت تفكر في أن ساعة الانسحاب ستأتي قريبا.

*****

تعب الرحلة الطويلة التي أقلتها من "بوجوتا" إلى "باريس" ومن "باريس" إلى "نيم" لم يؤثر على جمال "كلودين". هكذا

اكتشفت "باريس" التي غادرتها وعمرها ثلاث سنوات. أرادت أن تنطلق في شوارعها، وتتفرج على المحلات، وتحضر عروض الأزياء في بيوت الأزياء الراقية ولكنها كانت مشغولة جدا بانتقامها. لقد كانت متحمسة جدا أن تنال من "رومان" و"فاني" ولا شيء يهم سوى ذلك. وعندما يتحقق لها النصر ربما تتوقف في العاصمة في طريق عودتها..

هبطت الطائرة في هدوء في مطار "نيم- جارون"، ونزل الركاب.

بعد أن أخذت حقائبها توجهت الفتاة الشابة إلى محطة التاكسي. كانت الساعة التاسعة. نظرت إلى السماء، كان الجو رائعا. لقد طرد نسيم الصباح السحب.

خاطبت السائق في فرنسية طلقة. كانت الإسبانية قد تحولت إلى لغتها الأولى ولكن "چان دو سان أماند" قد حرص على أن يجعلها تمارس بطريقة صحيحة لغتها الأم.

حمل السائق الحقائب في السيارة، وبعد أن عرف وجهتها سلك الطريق. نظرت "كلودين" عبر النافذة في شيء من التأثر:

«هذا هو إذن البلد الذي ولدت فيه».

ليس لديها أي ذكرى، بالنسبة لها كانت حياتها وبلدها هي "كارتاچان"، في "كولومبيا". منذ سن الثالثة عرفت كيف تنعم بالسباحة في المياه الزرقاء على الساحل الكاريبي، والجبال البكر حيث لا يعيش سوى بضعة هنود في هذا المناخ الأمازوني الغني الذي يخترقه نهر واسع يشبه البحر، وسط هذه الطبيعة التي يغرق الضوء كل ما فيها نمت "كلودين".

وعلى الرغم من ذلك لقد كانت فرنسية، وهذه الحقيقة بدت

لها كأنها شيء كوميدي؛ لأنها قد عادت إلى بلدها الأم ليس لكي تسترجع ذكرياتها، ولا لكي تبحث عن أسرتها ولكن لكي تزرع الشر. هل تشعر بالندم؟ نادرا ما كانت تقع تحت تأثير مثل هذا الشعور. لقد كان يحركها إرادة متوحشة، وكانت تعرف أنها ستكمل طريقها حتى النهاية مهما كانت النتائج.

هل تفعل ذلك حقا من أجل المال؟ في الواقع لقد كان لديها ما يكفيها، وكانت تستطيع أن تقتسم هذه الثروة طواعية مع "فاني". ولكنها كانت تفكر في هذا الأمر من منطلق واحد، وهو لماذا ولأي سبب تأتي هذه الأخيرة وتدعي أن لها أي حق في الميراث مهما كان؟ إنها لم تشارك "چان دو سان أماند" العمل، ولم تساعده في إنجاحه، وكان ذلك كافيا بالنسبة لـ"كلودين"، أما بالنسة لنصيبها فقد عاشت إلى جواره سبعة عشر عاما تساعده في عمله؛ لذلك فهي الآن ترفض القسمة. لقد كان تعاونهما مثاليا، لقد أعطاها مذاق النجاح والحرية، وأضافت إليه الصلابة، نفس الصلابة التي دفعتها اليوم لتأتي إلى "ترياس" وتسوي حساباتها.

سلك التاكسي طريق "بانيول سور سيز". غير مهتمة بالمنظر الممتد أمامها. استرجعت "كلودين" ذكرياتها. لقد قدم لها "چان دو سان أماند" أول فرس، كما قدم لها مزرعة الخيول التي حدثها وطورها عند عودتها من "بوجوتا" حيث أنهت دراستها الثانوية. في ذلك اليوم لم يحدثها بأي شيء ولكنها أدركت- أو أنها أقنعت نفسها- أنه قد أهدى لها كل هذا العالم. ولكن هيهات، كم كانت خيبة أملها عندما اكتشفت الوصية! لهذا السبب رفضت الاعتراف بوجود "فاني". قالت لنفسها: «هذا الفضاء الفسيح لي أنا، لي بمفردي». لقد سيطر عليها حلمها

ففقدت قلبها وإنسانيتها.

أخرجت من حقيبتها مرآة صغيرة، وألقت نظرة، لا يجب أن يفوتها أن تترك انطباعا حسنا لمجيئها المفاجئ إلى عائلة "سان أماند". ولقد طمأنتها صورتها المنعكسة من المرآة. عيناها الخضراوان، وأنفها المستقيم وجبهتها العريضة التي يعلوها شعر أسود كثيف، وقوامها المتناسق الذي يحتويه "انسامبل" من الجلد يبرز جمال قسماته. إن كل ما بها جميل.

نظر إليها السائق من خلال المرآة العاكسة للسيارة، وسألها مداعبا كأنه يجرب حظه:

– هل لديك موعد؟

ضحكت:

– موعد؟ نعم بطريقة ما. ولكن في الحقيقة لقد أوحيت إليّ بفكرة ممتازة. هل تستطيع أن تتوقف لحظة عند أقرب تليفون؟

– بالتأكيد يا آنستي.

وبالفعل توقفت "كلودين" عند أول كبينة تليفون، وطلبت رقم فندق "الإمبراطور"، وتركت في الاستقبال رسالة لم تذكر فيها اسمها تبلغ فيها "رومان" بأن ينتظرها في الـ"ميكولين". بدون شك سيهرع إلى هناك. وبابتسامة خفيفة تعلو شفتيها عادت إلى السيارة التي انطلقت. نظرت إلى ساعتها، كانت الساعة تقترب من العاشرة صباحا.

بعد عشر دقائق وصلت إلى "ترياس". أوقفت "كلودين" التاكسي أمام البلدية.

قالت للسائق:

– من فضلك أودع حقائبي في فندق "الإمبراطور".

لقد تولدت الفكرة في رأسها توا. وجدت أنه من الأفضل أن تنزل في نفس الفندق الذي ينزل فيه "رومان".

ابتعد التاكسي. بقيت "كلودين" بمفردها تنظر حولها وهي تشعر بأنها تائهة. أين الـ"ميكولين" إذن؟ نظرت جيدا إلى كل الواجهات التي كانت متشابهة تقريبا على أمل أن تتعرف إلى البيت. وعندما تعبت دون جدوى قررت أن تذهب وتسأل المخبز.

سألت:

– من فضلك أين منزل عائلة "سان أماند"؟

أجابها الرجل:

– إنه أمامك مباشرة يا سيدتي، ولكن يجب أن تمري من الجانب الآخر من خلال الحقول. إنهم لا يفتحون أبدا البوابة التي تشرف على الشارع.

شكرت السيدة الشابة الرجل، وسلكت الطريق الذي تصفُّه الأشجار قبل أن تنعطف إلى اليمين، فرأت بعد قليل صفا مزدوجا من الحشائش على جانبي طريق سيئ البلاط يؤدي إلى منزل من الأحجار. في الفناء كانت هناك نافورة.

قالت في نفسها: «في هذا المكان ولدت».

مرة أخرى شعرت بوخزة في صدرها. جاهدت ألا تخضع لعواطفها، ولكن رؤية هذا المنزل أثارت في نفسها مشاعر لا تستطيع أن تتجاهلها. ألم يعش "جان دو سان أماند" هنا قبل أن ينفي نفسه في "كولومبيا"؟ هنا أيضا ستكتشف آثارها، وهذا ما يؤثر فيها. كلما فكرت في المزرعة الكبيرة في "كولومبيا"، والمهمة التي عهدت بها لنفسها زادت إرادتها في الاستمرار إلى النهاية. نسيت بسرعة لحظة الضعف وقوي

عزمها. بدون تردد دخلت الحديقة، وتوجهت بخطى واثقة نحو المنزل. هدأت ريح الصباح وبدأ الجو يلطف.

بدا المنزل هادئا. ظنت لحظة أنه خال ولكن كانت النوافذ مفتوحة، وكانت السيارة الموجودة في الجراج دليلا على وجود سكانه. لقد حانت لحظة المواجهة إذن. ألم تقطع كل هذه الأميال من أجل هذه اللحظة بالذات؟

وعندما وصلت إلى البوابة خلعت نظارتها الشمسية، وفتحت الباب بيد واثقة. دخلت ردهة خالية تشرف على عدة حجرات دون أن تعرف إلى أين تتوجه. دفعت الباب تلو الآخر لم يكن هناك أحد ولا في المطبخ ولا في الصالون. دخلت إذن المكتب وهناك لاحظت وجود فتاة شابة جالسة في مقعد عميق تحملق إليها: لقد كانت "فاني".

قالت في فتور:

– لقد كنت أنتظرك. حتى لا أخفي عليك شيئا، كنت أنتظرك منذ خمسة أيام وبدأت أسأم الانتظار.

لم تجبها "كلودين" وتفحصت السيدتان كلاهما الأخرى دون إبداء أي دهشة. بل شعرت كلاهما أنها تنظر إلى نفسها في المرآة. لقد كانت "فاني" و"كلودين" أختين توءمتين.

الفصل الثامن

– سيد "بلشاس"، سيد "بلشاس"..

كان عامل الفندق يبحث في الفندق كله عن "رومان" ولقد كان هذا الأخير قد دخل البهو متوجها نحوه.

– ماذا هنالك؟

– رسالة من أجلك.

احتار "رومان" عندما قرأ النص المجهول الذي تركته له "كلودين" بأن يتوجه على الفور إلى الـ"ميكولين". كان أول رد فعل له هو الاتصال بالمنزل؛ ليتلقى الأخبار. ردت عليه "تيريز".

سألها في قلق:

– هل حدث شيء لـ"فاني"؟

وأخبر المربية العجوز بالرسالة التي تلقاها، وهي لم تكن على علم بما حدث.

أجابت:

– سأذهب لأراها، لابد أنها في الصالون.

لم يطمئن "رومان" تماما. خرج من الفندق، وقفز في سيارته، بينما توجهت "تيريز" إلى الصالون، دخلت الحجرة ووقفت خلف "كلودين"، وسمعت الكلمات التي نطقت بها "فاني" توا. كلمات بقيت محفورة في ذاكرتها.

إن السيدة الشابة بدت لها مألوفة تماما عندما نظرت إليها من ظهرها.

قالت القادمة الجديدة بنبرة ساخرة:

– آه! أعتقد أنها "تيريز".

التفتت المربية العجوز نحو الشابة المجهولة، وارتسمت دهشة كبيرة على وجهها. لقد وجدت أمامها نسخة أخرى من "فاني". في حيرة شديدة سقطت في أحد المقاعد، ونظراتها تروح من الواحدة إلى الأخرى.

– لكن.. ربما يكون.. ربما..

قالت "فاني" في جفاف:

– نعم لقد أحسنت التخمين. إنها "كلودين".. "كلودين" التي أخفيت عني أنت وعمي "أندريه" وجودها منذ سبعة عشرة عاما. كما أخفيتما عني وجود أبي.

لم تعرف "تيريز" بماذا تجيبها. لقد كانت محقة عندما توقعت الحزن الذي سيجلبه هذا الميراث. إن "كلودين" هنا في الـ"ميكولين" وهي لم تأت إلا لتجلب شرا. عندما أطلعها "أندريه دوريل" على خطاب محامي "بوجوتا" الذي يخبره فيه بوجود توأم "فاني"، وأشار إليه برغبتها في الاستحواذ على الميراث دعت "تيريز" الله بالا تتقابل الأختان أبدا؛ لأنها كانت قد أدركت على الفور بأنهما إذا كانتا متشابهتين كقطرتي ماء فهما مختلفتان تماما من حيث الطباع. واحدة مشرقة تحب الحياة لها قلب يفيض بالمشاعر الجميلة، والأخرى قاسية وحسود.

دون أن تكون مقتنعة تماما كانت "تيريز" تأمل في ألا تعرف "فاني" بوجود أختها أو على الأقل أن تعرف بوجودها آجلا.

ولكن لقد جاءت "كلودين"، وأدركت "تيريز" أن الوقت قد حان الآن لتقدم حساباتها لطفلتها.

قالت "فاني" لأختها:

– اجلسي. أنت في بيتك.

قهقهت "كلودين":

– لا تتظاهري بما هو ليس حقيقيا. أعتقد أن مجيئي إلى "ترياس" لا يسعدك كثيرا. إذا كان كما فهمت أنهم لم يخبروك بوجودي. ولا محامي "نيم" الطيب ولا "تيريز" ولا "رومان". آه! هؤلاء الكتومون.

– "رومان"... نعم لقد علمت منذ بضعة أيام أنك على علاقة قوية بـ"رومان".

– ومازلت لا تعرفين كل شيء.

لقد كانت "فاني" تتألم بشدة. عم ستكشف لها أختها إذن؟

أغمضت عينيها ثم فتحتهما، وكان وجهها قد هدأ كأنها لم تسمع شيئا. التفتت نحو "تيريز" وقالت بصوت فاتر:

– الآن يجب أن تجاوبينا. هناك الكثير الذي أريد أن أعرفه و"كلودين" أيضا على ما أعتقد. السؤال الأول: لأي سبب افترقنا؟ لأي سبب بقيت في الـ"ميكولين"، وأختي في "كولومبيا"؟ لقد جاء الوقت لكي تخبرينا.

بكت العجوز في هدوء. لقد كانت المواجهة قاسية جدا.

تدخلت "كلودين":

– كفي عن النحيب. احكي لنا إذن ما تعرفينه منذ أن عرفت أن لي أختا والفضول يأكلني لكي أعرف المزيد.

همست "تيريز":

– لقد انفصلتما بفعل المصادفة. عندما قرر والدكما الرحيل. قرر في نفس الوقت أن يختطفكما أنتما الاثنتين. بفعل المصادفة ذهبت لأتنزه مع "فاني" في الحقول بينما بقيت "كلودين" في غرفتها؛ لأنها كانت مريضة. أخذها معه. هذا تفسير

افتراقكما. لو اختفيتما أنتما الاثنتين لما تحملت السيدة "دو سان أماند" الصدمة.

– هذا لم يمنعها من الموت من الحزن بعد ذلك بسنتين.

قالت "تيريز" في ألم:

– هذا صحيح يا "فاني". إنها لم تعش طويلا.

قالت "كلودين" ساخرة:

– كما فهمت لقد كانت نبتة ضعيفة.

نظرت إليها السيدتان في حدة.

أجابت "فاني":

– إن ما قلته توا هراء. لقد ماتت بخطأ من أبي الذي هجرنا، وكل ما تستطيعين أن تقوليه عنها إنها كانت نبتة ضعيفة! ولكن على أية حال هذا التفكير لا يدهشني منك بعد الذي قرأته في الخطاب.

نظرت إليها "تيريز" و"كلودين" في دهشة:

– الخطاب، أي خطاب؟

– خطاب محامي "بوجوتا".

قالت "كلودين" في نفسها: «إن هذا المحامي الغبي حرمها من المفاجأة التي أرادت أن تقدمها لأختها». لقد فهمت الآن استقبال أختها لها وقولها: «لقد كنت أنتظرك؟».

قالت "فاني" مفسرة وموجهة حديثها إلى "تيريز":

– تذكرين عندما طلب مني عمي أن أمر عليه بعد الظهر؛ لكي أوقع بعض الأوراق التي تخص الميراث، عندما ذهبت إليه لم يكن موجودا في مكتبه، واضطررت للانتظار ربع الساعة. في هذا الوقت لاحظت وجود ملف على مكتبه كتب عليه: أعمال

"فاني دو سان أماند". فهمت ما موضوع الملف، وأعترف بان فضولي قد دفعني لكي أفتحه، ولست نادمة على ذلك. كان هناك خطاب بالإسبانية وترجمته الفرنسية.

نظرت إلى عيني "كلودين":

– هذا الخطاب ليس به ما يشيد بك يا أختي العزيزة، يبدو أنك تركت انطباعا سيئا للغاية لدى المحامي، وحاولت بطريقة خرقاء أن تشتريه، وعندما كتب هذه الكلمات كان واقعا تحت تأثير شعوره بالاختناق من تصرفك الشائن. هذا الخطاب قد حذرنا من خطتك.

رفعت "كلودين" حاجبيها غاضبة لوجودها في موقف اتهام وقالت:

– لا يهمني!

– ربما. ولكن هذا لا يمنع أنه تحذير قد جاء في وقته، الوصف المعنوي الذي وصفك به يبدو أنه ينطبق تماما مع الحقيقة.

– ما الذي تعرفينه عن حقيقتي؟

– مجيئك المفاجئ لا ينبئ بأي خير. لا أعتقد أنك قد جئت إلى "ترياس" فقط للتعرف إليّ. وكذلك هناك ذلك الميراث الذي يشغلك كثيرا. كما فهمت أنت تشعرين بأن نصيبك غير كاف، وأنك تريدينه كله.

قالت "كلودين" رافعة صوتها:

– لي الحق في ذلك.

نظرت إليها "فاني" في دهشة:

– أنت امرأة مبدؤها كل شيء أو لا شيء، أليس كذلك؟

رددت "كلودين":

– لي الحق في ذلك. إنني أنا التي عشت مع والدي، أنا التي ساعدته طوال كل هذه السنوات، أنا التي ساندته. كل ما حققه في "كولومبيا" وكل عمله يؤول إليّ لأنه جزء مني، لا تستطيعين أن تقولي نفس الشيء عن نفسك.

أجابت "فاني":

– لا بالتأكيد، لكن من فضلك انسي قليلا هذا المال. دعي لي الوقت حتى أستوعب هذا الخبر المزدوج، في البداية عرفت أن لي أختا بالإضافة إلى أنها توأم، واليوم أستنتج أن هذه الأخت التوأم تكرهني. لقد عرفت ذلك بعد أن قرأت الخطاب الموجه إلى عمي، ولكن على الرغم من ذلك كنت مؤمنة أن تتحقق معجزة، والآن استنتجت أنني كنت مخطئة. أنت أسوأ مما كنت أعتقد.

قالت "كلودين":

– كل هذا كلمات، مجرد كلمات.

قالت "فاني":

– هذا صحيح. لكن هذه الكلمات قلتها دون أن أكون سعيدة، في لحظة ما فرحت لأن لي أختا.. ونسيت محتوى الخطاب.

عندما عرفت أن لها أختا وهي التي لم يكن لها أي أقارب قد أدخل هذا الخبر إلى قلبها الدفء. عندما كانت تنتظر المحامي بعد أن أعادت الخطاب إلى الملف كانت تطير من السعادة، ستستطيع أخيرا أن تتقاسم سعادتها وآلامها مع أخت من سنها ومن دمها. ولكن عندما فكرت في كلمات خطاب المحامي تحطمت آمالها. على الرغم من ذلك عندما رأت "كلودين"

تقتحم الغرفة شعرت بصدمة. وماذا لو تقابلتا بالأحضان؟ ولكن اتخذ حديثها منعطفا آخر وأدركتا بعد ذلك أن التفاهم بينهما سيكون مستحيلا.

رفعت "فاني" عينيها.

قالت بصوت جاف:

– تستطيع أن تدخل يا "رومان". لست غريبا عن هذا الاجتماع العائلي.

جاء الرجل ليشغل إطار الباب.

تابعت:

– تعال، تعال. أعتقد أنني لست بحاجة إلى أن أقدمك إلى أختي فأنتما متعارفان.

دهش "رومان". لقد حان وقت تقديم التفسيرات. قال:

– صباح الخير يا "كلودين".

قالت في تعجب وهي تقترب منه:

– كيف لا تقبلني.

لم تتحرك "فاني" عندما رأتها تطبع قبلة خفيفة على خد "رومان" الذي ابتعد على الفور.

– هيا، هذا يكفي. ما هذه المسرحية الهزلية؟ ألم نقل كل شيء في التليفون!

– أنت لست لطيفا مع عشيقتك التي قطعت آلاف الكيلو مترات، فقط لكي تراك. إنني لم أتردد في أن أفعل، هكذا يكون الحب لقد أوحشتني تماما.

رأى "فاني" وقد شحب وجهها. غاضبا أمسك ذراع "كلودين" بعنف.

– إن ما فعلته يثير الاحتقار. إنك اليوم تظهرين على حقيقتك. قاسية وشريرة.

قالت في سخرية:

– قاسية وشريرة؟ ولكني لست حمقاء. هل كنت تعتقد أنني سأتركك تهرب بحبي وبمال أبي؟ مالي؟

كانت "فاني" الجالسة في مقعدها على وشك الإغماء.

استطردت:

– عندما رأيت رد فعلك أدركت أنني قد وصلت في الوقت المناسب. ربما تكون قد مارست الحب معها أيضا. وكأنك تمارس الحب مع نفس المرأة، أليس كذلك؟

صفعها بقسوة. بقيت ساكنة في مكانها ثم وضعت يدها على خدها وبقيت صامتة برهة قبل أن تهب واقفة وتقول:

– عندما جئت إلى هنا أردت فقط أن أدمر خطتكما، وأذكركما بأنني موجودة. ولكن الآن هذا لا يكفيني وأريد انتقاما آخر.

قالت مخاطبة "فاني":

– "فاني"، اسمعيني. "رومان" ليس عشيقي فقط، إنه شريكي في خطتي أيضا ليساعدني على استعادة باقي الميراث، وافق على أن يأخذ دورا في خطتي، اسأليه عنها إذن.

قال المهندس:

– اصمتي!

قالت "فاني":

– تكلمي!

استطردت "كلودين":

– نعم سأتكلم. أليس طبيعيا يا عزيزي "رومان" أن أخبر أختي وأن أحذرها منك أنت؟ أليس أنت من لعب الدور المزدوج؟ اسمعيني جيدا يا "فاني"، كانت الخطة أن يحوز "رومان" على ثقتك ويمثل عليك الحب حتى تسقطي بين أحضانه، ويتزوجك وبينما أنت تحت تأثير حبه يضع يده على ثروتك. وبمجرد أن يتحقق له ذلك يتركك ويعود إلى "كولومبيا".

تدخلت "تيريز":

– وربما تكونين قد رأيت أن ذلك سيستغرق وقتا طويلا فحاولت لدى المحامي.

– تماما. وأعترف بأنني أخطأت في ذلك.

نهضت "فاني"، وقالت لـ"كلودين":

– اذهبي من هنا.

– ماذا؟

– اذهبي. لقد تسببت في كثير من الألم في هذا المكان. ألا يكفيك؟ هل لديك المزيد من التصريحات؟

بقيت "كلودين" صامتة.

استطردت "فاني":

– إني أحب "رومان"، ولقد أتيت لتحطمي سعادتي. وإني لأردد لك سؤالي: ألا يكفيك هذا؟

جرت "تيريز" نحوها، وأحاطت كتفيها لتواسيها.

قال "رومان" بدوره:

– لا أعتقد أن لك دورا هنا.

أصرت "كلودين":

– أريدك أن تأتي معي.

قال في شدة:

– أبدا. إذا كان هناك نصيحة أسديها إليك، فانسي حتى اسمي.

عضت "كلودين" شفتها. ثم استدارت واختفت في الفناء.

عاد "رومان" نحو "فاني" ولكنها صدته.

قالت في هدوء ظاهري:

– أنت أيضا تثير الاحتقار. كنت أجهل أن لك دورا في هذه المؤامرة. لا أريد أن أراك من الآن فصاعدا.

– "فاني" دعيني أشرح لك.

قالت في تصميم:

– هذا لا طائل منه. بالنسبة لي أنت لم يعد لك وجود. أرجوك لا تعد مرة أخرى إلى الـ"ميكولين"، ولا تحاول أن تراني. انتهى كل شيء بيننا.

– لكنك لا تستطيعين أن تضعي نهاية لحبنا بهذه السهولة، ولا أن تلغي مشروعاتنا المستقبلية، ليس لديك الحق في أن تبني قرارك على كلمات هذه المجنونة.

– هذه المجنونة عشيقتك، ولقد تآمرتما معا ضدي.

– لم أكن أنوي تنفيذ ما طلبت مني "كلودين". ألم أثبت لك ذلك؟ إنه أنت من أحب يا "فاني".

– لم أعد أصدقك يا "رومان" وداعا!

غادرت الحجرة تتبعها "تيريز"، وبقي الرجل الشاب بمفرده منهارا لقد انهارت كل مشروعاته التي كان يخطط لها منذ بضعة أيام. إنه خطؤه هو؛ لأنه في لحظة ضعف استسلم لعاطفة

عابرة وهو الآن يدفع الثمن. وأي ثمن.

هل عليه أن ينتظر حتى يقنع المرأة التي يحبها بحبه؟ ولكنه أدرك أنه من الأفضل ألا يصر على ذلك. في هذه اللحظة لقد كانت المواجهة عنيفة جدا بين ثلاثتهم، وسيكون من الخطأ محاولة تبرير موقفه. لم يستطع أن يأمل إلا في شيء واحد: أن يداوي الزمن الجراح الذي تسبب هو فيها. غادر المنزل والحزن يعتصره. لقد ترك المنزل الذي عرف فيه السعادة، وركب سيارته ورحل.

وقفت "فاني" خلف نافذة حجرتها التي لاذت بها. بدت كأنها قد فقدت شعورها، كأنها مرت بعملية جراحية ولا تزال تحت تأثير المخدر. اللحظات المؤلمة التي عاشتها قد أثرت في نفسها بعمق وبعد ذلك استعادت إدراكها، وعرفت مدى حزنها. لقد مر بها الكثير من الأحداث في وقت قصير. سقطت عليها من السماء أخت مختلفة عنها في كل شيء ثم سرعان ما فقدتها. وهي عدو لها.

إن "فاني" لم تتصور أبدا كل هذه القسوة والعنف التي أظهرتهما أختها. كانت تعتقد دائما أن بين الإخوة التوائم يوجد دائما توافق وتواطؤ شديدين، ولكنها شعرت بالألم عندما استنتجت أن حالتها هي وأختها استثناء لهذه القاعدة: إن علاقتهما كانت تقترب من الكراهية. لكنها كانت تشعر باليأس لفقدها "رومان" على الأخص.

قالت لنفسها: «لقد طردته».

وماذا كانت تستطيع أن تفعل غير ذلك؟ إنها لا تستطيع أن ترى وجهه بعد التصريحات التي أدلت بها "كلودين" في وقاحة

عندما قرأت خطاب محامي "بوجوتا" في مكتب عمها، وعرفت بوجود أختها، شكت في أن يكون "رومان" يعرفها بما أنه كان يعيش بالقرب من "چان دو سان أماند" أيضا، ولكنها لم تواجه أبدا احتمال أن يكون شريكا لها في مؤامرتها ضدها.

الآن فهمت سبب سكوته وقالت لنفسها: «في الحقيقة إنه لم يكن يحبها بل يحب "كلودين"».

لقد كان عشيقا لأختها، ولم يتأخر، فبمجرد وصوله إلى "ترياس" فعل نفس الشيء، وجعل من "فاني" عشيقة له أيضا. نعم بالتأكيد، إنه شخص يثير الاحتقار. لقد وافق أختها على خطتها آملا في وضع يده على ثروتها. في الواقع إن المال يفسد كل شيء، ويلوث كل شيء. إن هذا الميراث لا يجلب لها سوى الألم.

وماذا ستفعل به؟ إنها لا تشعر بسعادتها إلا في "ترياس"، في منزلها الذي يحميها: الـ"ميكولين" حيث عاشت شبابها. ماذا سيقدم لها المليون دولار أكثر من ذلك؟ سيتدافع نحوها الآخرون الذين يطمعون في الثراء وبعد مقابلتها لـ"كلودين" عرفت إلى أي حد قد يصل جشع الإنسان.

تأملت المنظر الممتد أمامها، الفناء والنافورة القديمة، المرعى البعيد، وأشجار الكريز، والشجرة التي تحب أن تغفو تحتها وتحلم. لا، لا شيء يستطيع أن يقتلعها من "ترياس". لكنها الآن وحيدة، وحيدة بشكل مؤلم وعليها أن تتحلى بالشجاعة لتحتمل هذه الصدمة. ولكن كان هناك "تيريز" وعمها "أندريه"، ولكنهما ليسا من جيلها وهي غاضبة منهما قليلا؛ لأنهما لم يخبراها بالحقيقة. ولكن سرعان ما صححت هذا

الشعور؛ لأنها كانت تعرف في قرارة نفسها أنهما فعلا ذلك لحمايتها، ولكنهما أخطآ لأنها لم تكن ضعيفة إلى هذا الحد الذي يعتقدانه. كانت تعرف أنها قوية العزم، ولقد برهنت على ذلك عندما أخبرت "رومان" بأنها لا تريد أن تراه مرة أخرى، على الرغم من أنها تحبه.

لقد عرفت من أول نظرة أنه سيكون رجل حياتها، وأنه لن يكون في حياتها سواه. وبشكل طبيعي تحولت إلى عشيقته. هل هي نادمة على ذلك؟ لقد سلمت نفسها باسم الحب وعاشت لحظات سعيدة ولكنها الآن يجب أن تضع كل ذلك في ألبوم الذكريات وتحاول أن تداوي جراحها.

سمعت طرقات على الباب. إنها "تيريز".

- ادخل.

دخلت المربية العجوز الغرفة، وجلست على حافة السرير. همست:

- يا صغيرتي المسكينة!

أجابت "فاني":

- لا يا "تيريز"، لن أترك نفسي لأنهزم أبدا.

قالت العجوز:

- أنت تتألمين، وهذا يحزنني. أترين لقد أخبرتك قبل ذلك أنني لا أثق بـ"رومان" هذا. لقد كان سببا في شقائك.

- "تيريز" أنا المسؤولة عن ذلك، ومن الآن فصاعدا لا تنطقي بهذا الاسم. افعلي لي هذا المعروف من فضلك، والآن سنستأنف حياتنا كما كانت.

هزت "تيريز" رأسها. لقد كانت تعرف أن لا شيء سيعود

كسابق عهده.

تذكرت زواج "الين" والدة التوءمتين بـ"چان دو سان أماند". كانت في خدمة الأسرة عندما تعرفت "الين" بهذا الرجل الذي كان سببا في شقائها. لقد حضرت مراسم زفافهما في كنيسة "ترياس"، واسترجعت صورة "الين" الشابة الرائعة في فستان زفاف أبيض جميل خلفه ذيل طويل تحمله أربع فتيات من القرية.

وتبع مراسم الزفاف حفل كبير في حديقة الـ"ميكولين"، كان والد "الين" مالك أراض وقد دعا كل أصدقائه في الإقليم، واصطفت الموائد الكبيرة المفروشة بالمفارش البيضاء تحت الأشجار التي وضعت فوقها المشهيات والأطباق الشهية التي اشتهرت بها العائلة.

حتى ساعة متقدمة من الليل استمر الحفل بعد أن انسحب العروسان اللذان ذهبا في رحلة شهر العسل على شاطئ "اليونان". عندما عادا بعد خمسة عشر يوما كانت السعادة تبدو عليهما، وبعد ستة أشهر توفي والد "الين"، وبقيت "تيريز" في خدمتهما.

وبدأت الأشياء تأخذ مظهرا مختلفا بالتدريج، وازدياد غياب "چان دو سان أماند" في رحلاته إلى "باريس"، وأحيانا كان يتغيب أسبوعا متواصلا. كان يشعر بالضيق في "ترياس". وبدأت "تيريز" تلاحظ القلق على وجه "الين"، وازداد الشجار بين الزوجين وحتى قدوم التوءمتين لم يقرب بينهما إلا لفترة وجيزة. وعندئذ وقعت المأساة: يوما ما هرب ومعه ابنته "كلودين".

كانت "تيريز" مقتنعة بأنه كان ينوي أن يأخذ "فاني" أيضا إذا استطاع. لقد كان هذا تصرفا أحمق. لقد ركب السيارة مع الطفلة، واختفى ولم يعد أبدا.

هزت "تيريز" رأسها. ومن وقتها لم يعرف الـ"ميكولين" السعادة إلا منذ بضع سنوات طفولة ومراهقة "فاني". لقد كانت الهدنة قصيرة، قصيرة جدا. إنها لا تستطيع أن تحتمل فكرة أن طفلتها العزيزة حزينة.

توجهت "فاني" نحو النافذة ثم استدارت فجأة، وقالت:

– سأرحل.

– هل ستتركيننا؟

تمتمت العجوز المسكينة بهذه الكلمات. إن هذا الخبر الذي تفوهت به صغيرتها كان صدمة كبيرة لها.

– أين تريدين أن تذهبي؟

– ليس بعيدا، اطمئني. ساعيش في "باريس" يجب أن أبدأ دراستي الجامعية في الأدب، سأسجل اسمي في "السوربون". أريد أن أغير حياتي وأنسى.

همست "تيريز":

– هل تحبينه إلى هذه الدرجة؟

لمعت الدموع في عيني "فاني".

– أنت لم تفهمي إذن أنني مازلت أحبه، وأن قلبي يتمزق..

– لكن...

– لا يا "تيريز" لا تتحدثي عن هذا الموضوع بعد ذلك. وبعد ثلاثة أو أربعة أيام سأكون قد رحلت.

اعترضت المربية:

– ولكن الدراسة لن تبدأ قبل الخريف.

– أعرف، ولكني أشعر هنا بالاختناق، سامحيني يا "تيريز"، أريد أن أترك الـ"ميكولين" بعض الوقت، ضروري.

في اليوم التالي توجهت إلى "نيم"؛ لتودع عمها، وبعد بضعة أيام طارت إلى العاصمة. وبعد قليل وجدت ما كانت تبحث عنه في ميدان "دي ڤيكتوار" في زاوية شارع "أبي قبير". حجرتين مضيئتين استغرقت بعض الوقت لتفرشهما على ذوقها، وطافت الشوارع لتكتشف "باريس" في شهر يوليو (تموز).

ذات مرة عندما عادت إلى شقتها شعرت بدوار. بعد ساعة توجهت إلى الطبيب الذي أعلن لها الخبر. لقد كانت حاملا.

الفصل التاسع

في نفس المساء كانت ترقد في سريرها تتذكر ما حدث عند الطبيب. أمام الطبيب الشاب الذي استقبلها أخبرته بإغمائها. فحصها بعناية ثم طلب منها أن ترتدي ملابسها وبعد أن دعاها للجلوس في أحد المقاعد أخبرها بحالتها.

– أنت تنتظرين طفلا يا سيدتي. ولكن لزيادة التأكد يجب أن نجري بعض الفحوصات.

وهي تسمع الطبيب يعلن لها هذا الخبر بصوت هادىء شعرت "فاني" بأن السماء تسقط على رأسها. حامل! اهتزت الأرض تحت قدميها. إن تربيتها الريفية والعائلية قد واجهتها بثورة عنيفة. إنها غير متزوجة وتحمل طفلا! شعر الطبيب بالقلق عندما لاحظ ارتباكها.

– ماذا يحدث يا سيدتي؟ هل هناك شيء؟

هزت رأسها وشكرته، وعادت بسرعة إلى شقتها لتفكر في هدوء في وضعها الجديد. أثناء الطريق القصير الذي قطعته لتصل إلى منزلها ترددت كلمات الطبيب على ذهنها: «أنت تنتظرين طفلا».

جلست في أحد مقاعد الصالون، وحاولت أن تستعيد هدوءها. هناك قوتان تتصارعان في داخلها: الأولى الرغبة في التخلص من هذا الوضع، والثانية نوع من الحنان. لقد مرت لحظة الدهشة الأولى، لقد شعرت فجأة بالاضطراب لفكرة أن هناك طفلا في بطنها، ولا يطلب سوى أن يعيش.

قالت لنفسها: «الآن لم أعد وحيدة. سأجد شخصا ما أحبه».

إنها تحمل بداخلها أملا جميلا، وستفعل كل ما بوسعها لتحافظ عليه.

و"رومان"؟ هل لها الحق في أن تخفي عنه هذه الفرحة الكبرى التي هزت كيانها؟ ترددت طويلا ثم أجابت نفسها بالإيجاب. لقد أحبت هذا المهندس الشاب من كل قلبها، ولاتزال تحبه. ولكنه غير جدير بهذا الحب. كان يجب أن تخبره. ثم قالت لنفسها لتجد عذرا "لكنه على أية حال قد اختفى". وكانت هي المسؤولة الوحيدة عن الطفل الذي سيولد بعد ثمانية أشهر. ولم تنزعج لحظة من كونها أما غير متزوجة. وداعا للخجل، ستتجاهل القيل والقال! ستحمل طفلها في فخر. لا داعي للتخفي على العكس. بما أن القدر قد قرر هذا فإنها ستسخر مقدما من تعليق الآخرين على حملها. لقد شعرت بأن ما تحمله ولدا، واختارت له اسم "أدريان" ولن يتربى في الخفاء.

كانت تحلم وهي مستيقظة حتى إنها لم تر الليل يمضي. لم تنتبه إلى بزوغ النهار إلا عندما انطفأت مصابيح الشارع خلف الستائر. لقد ظلت طوال الساعات الماضية منكفئة ليس على ماضيها ولكن على مستقبلها بل مستقبليهما. كانت تعرف أنها ستكون قوية. لقد اختفت القروية الصغيرة لتترك مكانها لـ"فاني" جديدة. "فاني" الأم غير المتزوجة.

شدت الستائر وفتحت النافذة، لتتأمل ميدان "دي ڤيكتوار" الخالي تقريبا. كانت سيارات الأجرة تمر من آن لآخر. عندئذ ضحكت من قلبها. لقد فقدت حبيبا وزوجا ولكنها كسبت طفلا. فكرت "فاني" في رد فعل "تيريز"، وعمها "أندريه". "تيريز" خاصة، تخيلتها منكفئة على مهد الصغير تقوم بنفس

الحركات الحانية التي كانت ترعى بها "فاني" منذ عشرين عاما. سيكون لـ"ميكولين" قريبا سيد.

ولكن كيف ستربيه بشكل لائق؟ ضحكت من جديد: الميراث، نصيبها في الميراث الذي تركه لها والدها المجهول. سيسمح لها هذا الميراث بتربية "أدريان" وهو يستحق ذلك. تذكرت أنها منذ بضعة أيام لم تكن تهتم بالثروة التي لم تجلب لها سوى الألم. ولكن لقد تغير الوضع الآن. لم تعد تقرر من أجل نفسها فقط. يجب أن تعتاد من الآن فصاعدا أن تستخدم صيغة الجمع.

فقط عندما ازدادت الحركة في الشارع غفت "فاني"، والنافذة مفتوحة على آمالها. لم تستيقظ إلا ظهرا، وفجأة أسرعت نحو التليفون. لقد أرادت أن تخبر "تيريز" بهذا الخبز. إنها تستحق أن تعرف. ألم تكن هي وحدها من يشاركها هذا العالم الذي عاشت فيه كل هذه السنوات؟ بقيت لحظة قلقة بشأن رد فعل "تيريز"، ولكنها اطمأنت بسرعة. لقد أظهرت "تيريز" رد فعل معاكسا تماما لما كانت تتوقع.

قالت في سعادة:

– تعالي يا "فاني"؛ لنعيش هنا. أستطيع أن أهتم بك.

– "تيريز"... لا داعي لذلك الآن. سابقى في "باريس". الآن على الأقل لكن لا تقلقي، سيولد الطفل في "ترياس" في الـ"ميكولين"، مستحيل أن أفكر في غير ذلك. لكني أريد أن أعتاد الاعتماد على نفسي، وإني حريصة على البدء في دراستي كما أخبرتك.

– على راحتك.

بعد ثمانية أيام قامت "فاني" بالفحوص المطلوبة التي أثبتت

أنها حامل بالفعل، وعندما عادت إلى شقتها وجدت خطابا في صندوق البريد. كان الخط غريبا بالنسبة لها. فتحته في فضول، وقفزت عندما رأت التوقيع. إنه خطاب من "رومان". صعدت الطابق الثاني وهي تفكر وجلست بالقرب من النافذة.

قرأت: «"فاني"، عزيزتي.. لقد قربتنا الحياة لفترة قصيرة، وإني حزين بعمق؛ لأنني أحببتك ولازلت أحبك. أنت تمثلين حلما لا أستطيع أن أصل إليه ولم أكن آمل إلا في أن أقابل امرأة مثلك. لقد تغيرت حياتي منذ أن رأيتك، ولن يعود أي شيء إلى ما كان عليه. لقد قررت عدم رؤيتي، ولا أستطيع أن ألومك. إن "كلودين" شيطان لا تحتمل سعادة الآخرين، وتتفنن في تقويضها. للأسف لم أكتشف ذلك مبكرا لو كنت فعلت لما قبلت التورط في مسألة ميراثك.

هل أستطيع أن أردد بأنني لم أكن لأنفذ ما طلبت مني؟ لقد ذهبت إلى "كولومبيا"؛ لأثبت وجودي في عملي، وليس من أجل الثروة. استسلمت لـ"كلودين"؛ لأنها أغوتني ولا أنكر ذلك. ولكن هذه الفترة من حياتي تنتمي إلى الماضي، وأريد أن أنساها، أنت وحدك تسكنين قلبي.

أردت أن أقول لك ذلك لحظة فراقنا. لن أضايقك بعد ذلك».

"رومان"

قرأت الخطاب مرارا وتكرارا وقلبها يخفق بشدة. إنها تحب "رومان" كثيرا. والطفل الذي تحمله هو ابن "رومان". إنه هو من جعل منها أما. ارتسمت صورته أمامها: جسده الطويل، شعره الأسود الكثيف، وعيناه الرماديتان اللتان جذبتاها بمجرد أن نظر بهما إليها، وهذه الثنية الساخرة عند فمه.

ارتعشت "فاني". لكنها كانت قد أخذت قرارها، وهي ليست المرأة التي ترجع في قرارها. قالت لنفسها إنها كانت محقة في عدم رغبتها في العودة إلى "ترياس". على الفور كانت ستجد هناك الكثير من الذكريات: الشاطئ حيث كانا يسبحان، شجرة الكريز حيث تبادلا كلمات الحب. وجدت نفسها تغوص من جديد في ماض أرادت أن تنساه. إن الأمر يتعلق بمستقبل "أدريان" آجلا. عندما يولد الطفل سترى المستقبل بشكل مختلف.

وضعت الخطاب بعناية في حافظتها. إنها لن تتركه أبدا.

*****

تأمل "رومان" في إعجاب القوارب الصغيرة ذات الشراع الأبيض المنتفخ بفعل الرياح وهي تطفو على سطح النيل. عندما وصل إلى "هيلتون القاهرة" أتاح له موظف الاستقبال الاختيار إما غرفة تطل على المسجد ذي المآذن العالية في السماء الوردية، وإما غرفة تطل على النيل. ولقد فضل الاختيار الثاني، ولم يأسف عليه أبدا. إنه لا يسأم من تأمل هذا النهر القوي الغني الممتد إلى الدلتا، ومياهه الموحلة التي تحمل الحياة. بعيدا رأى أهرامات "الجيزة" وخاصة هرم "خوفو" الأكبر.

من غرفته كان "رومان" يتأمل أجمل مناظر العالم. في شهر سبتمبر (أيلول) كانت السماء صافية، والحرارة لطيفة. وكل شيء ينعم بالهدوء. كم كان بعيدا عن "كولومبيا" حيث عاش ساعات شائقة من العمل بالقرب من المغامر "جان دو سان أماند"، وكم كان بعيدا عن الـ"ميكولين" حيث قابل الفتاة التي

جعلت قلبه يدق بالحب.

نطق "رومان" اسم "فاني" في هدوء. لقد تحول هذا الرجل الساخر اللامبالي تحولا كبيرا منذ أن أحب هذا الملاك ذا الشعر الأسود، والعينين الخضراوين العذبتين اللتين أنستاه أنانيته وأشعرتاه بأن السعادة في التفكير في الآخرين. ثم صحح لنفسه في التفكير في الآخر الذي لم يكن سوى "فاني".

في وقت وجيز اكتشف أن الحياة قد تكون صنيعة الحب ليس فقط الذي نتلقاه ولكن أيضا من الحب الذي نعطيه. لقد اكتشف ذلك متأخرا، ولقد كانت سعادة زائلة، زائلة مثل النجمة المارقة وهو المسؤول الوحيد.

بعد أن غادر الـ"ميكولين" عاد "رومان" إلى فندق "الإمبراطور" في "نيم" حيث حزم أغراضه. ثم أخذ على الفور القطار المتجه إلى "باريس". في اليوم التالي، زار أحد أصدقائه الذي دهش عند رؤيته يطرق بابه.

ساله: و"كولومبيا"؟ يبدو أنك حققت حلمك هناك.

هز "رومان" رأسه بالنفي.

قال دون أن يدخل في التفاصيل:

– لقد انهيت عملي هناك.

ذهب الصديقان لتناول الغداء في أحد المطاعم، وأفصح "رومان" عن سبب زيارته.

– لا أنوي أن أستقر في "باريس"، ولم يعد لي أحد فيها باستثنائك، ولا أريد أن أعمل في "فرنسا". هل لديك عمل تقترحه عليّ؟

طلب منه الآخر أن يترك له الوقت ليسأل، وبعد ثلاثة أيام

اتصل به في الفندق.

– هناك فرصة يا "رومان" ولكن يجب أن ترحل على الفور إلى "القاهرة". وزير الأشغال المصري يبحث عن مستشار. الأمر يتعلق بالتعاون في إعادة إصلاح حي في المدينة.

أجاب "رومان" على الفور:

– موافق.

توجه إلى سفارة "مصر" وتم قبوله في الوظيفة. بعد يومين وصل إلى مطار "القاهرة". ثم نزل ليتنزه في العاصمة، ويشاهد معمارها ونمط الحياة فيها قبل أن يشرع في أي دراسة.

وأثناء إقامته القصيرة في "باريس" كتب هذا الخطاب ليودع "فاني". كان يجهل أن الخطاب قد تبع المرسل إليها التي لاذت بنفس المدينة التي نزل بها. ورد فعل "فاني" عندما استلمت الخطاب. هل صدقت ما كتبه؟ أو ربما مزقت الخطاب بدون أن تقرأه. كان يأمل في أن تكون قد صدقته، وعرفت أنه لا يهتم إلا بحبه لها.

تذكر هذه الليلة التي اعترف فيها بحبه لـ"فاني". إنه لم يعرف هذه السعادة أبدا وهو بالقرب من "كلودين". لقد كان متوافقا تماما مع "فاني"، ومنذ تلك الليلة عرفا أن كليهما للآخر. ثم باغتتهما "كلودين" ولم تترك له الفرصة ليثبت لـ"فاني" أنه قد أصبح رجلا آخر.

كان يجب أن تظهر "فاني" بعض التعقل. ثم طرد هذه الفكرة، لقد نال ما يستحق.

رن جرس التليفون. ترك البلكون آسفا وذهب؛ ليجيب، كانوا ينتظرونه لدى وزير الأشغال. نزل إلى الشارع وأوقف تاكسي.

الفصل العاشر

سألت "فاني":

– هل تغازلني؟

كانت تجلس في أحد المطاعم على الشاطئ الأيسر. كان في مواجهتها شاب له شعر بني ينظر إليها في اهتمام.

– لا تنس أنك طبيبي، وأنه يجب أن تعتبرني مريضتك. أين ضميرك المهني؟

نظر إليها مبتسما.

– لقد انتهت ساعات العمل. الساعة الآن التاسعة مساء ولم أعد طبيبك بل صديقك.

– هيا يا "أندريه" كف عن مغازلتي من فضلك. لقد قبلت دعوتك إلى العشاء بهذا الشرط، تذكر. إذا غيرت رأيك فلن أجرؤ على التردد على عيادتك.

– ليكن. سأفعل كل ما بوسعي لأكون عاقلا. لكن هذا صعب عندما تكون المريضة جميلة مثلك. إني أحب اليوم الذي شعرت فيه بالتعب، وطرقت باب أول طبيب يوجد في شارعك.

– "أندريه" كن جادا، لست امرأة طائشة، ولدي ما يشغلني. وأنت أفضل من يعرف ماذا يشغلني الآن. وليس جديرا بك أن تستغل وضعي.

– آسف يا "فاني" أنت محقة في تذكيري بواجبي. أقبل الهدنة آملا في أن تكون لفترة وجيزة. أحب رفقتك حتى إنني لا أريد أن أفقدها بالشجار معك.

منذ ثلاثة أشهر والشابان يتقابلان. بعد بضعة أيام من

الفحوص التي أكدت حملها قابلت الطبيب الشاب في الشارع ثم دعاها إلى العشاء في نفس المساء. ولقد قبلت "فاني" التي كانت تشعر بالوحدة في "باريس". وبدا "أندريه" رفيقا ممتازا بسيطا، وحسن الحديث، ولم يكن يخفي هدفه وهو النجاح السريع في "باريس"، والتمكن من مهنته، وبمجرد أن يتحقق ذلك ويجني الثروة يتجه إلى "مونبلييه" حيث درس الطب. وهنا سيعمل في مستشفى عام لساعات محددة، ويستطيع أن يمارس الرياضة التي كان مولعا بها. المراكب الشراعية، التزحلق على الماء والتنس. وهو يعمل في "باريس" منذ سنتين، وهو يفتقد نشاطه الرياضي بشدة. فهو بين المستشفى في الصباح، وعيادته بعد الظهر، ولم يكن لديه الوقت للتفكير في الهوايات.

قالت "فاني" في مكر:

– يبدو أن لديك الوقت الذي تكرسه للسيدات. برؤية الطريقة التي دعوتني بها عرفت أنك تذهب إلى هدفك مباشرة.

قال:

– ماذا تريدين؟ أنت تعجبينني منذ اليوم الأول الذي زرتني فيه في عيادتي، أدركت أنك من هذا النوع من النساء الذي يعجبني. في الحقيقة، منذ أن تعرفت إليك تبعتك عدة أيام قبل أن أجرؤ على بداية الحديث إليك. كما ترين أنا أكثر خجلا مما تظنين. بدون شك؛ لأني أحبك!

لقد نطق بتلك الكلمات الأخيرة بحرارة، وأرادت "فاني" أن تقلل من هذا الحماس فقالت:

– هيا، لا تدمر صداقتنا التي ولدت توا بالتفوه بكلمات لا

تؤمن بها تماما.

– لكن...

– لا يا "أندريه". لتدرك أن ما أبحث عنه ليس زوجا ولا عشيقا بل صديقا. حاول إذن أن تكون ذلك الصديق ببساطة.

– سيكون ذلك قاسيا.

غادرا المطعم، وسلكا الطريق المؤدي لميدان "دي فيكتوار".

كان الجو مازال لطيفا في شهر سبتمبر (أيلول)، وكان ذلك يشجعهما على التنزه. وفي لحظة فراقهما حاول "أندريه" أن يقترب منها؛ ليقبلها ولكنها لم تشجعه، وقالت في فتور:

– لقد أخبرتك أنك تضيع وقتك. أحب رجلا آخر. وهو والد طفلي. ولأسباب شخصية افترقنا، وعلى الرغم من ذلك لن يأخذ أي رجل آخر مكانه في قلبي أبدا.

صاح:

– ولكنك تظلمين نفسك.

– هذا شأني يا "أندريه". ربما تتغير الأشياء يوما ما، ولا أعرف بأي طريقة. لكن الآن أردد لك أنه ليس لدي سوى اهتمام واحد: هو طفلي.

هذا الطفل الذي بدأت تشعر به في أحشائها. منذ بضعة أسابيع ذات صباح بينما كانت تستريح على سريرها شعرت بشيء كالرعشة. فرحت كثيرا، وأدركت أن "أدريان" بدأ يعلن عن وجوده. ستمر بضعة أشهر طويلة أخرى قبل الولادة ولكنها قررت أن الوقت قد حان للعودة إلى الـ"ميكولين"؛ لتستعد لاستقبال طفلها.

في نفس اليوم، بعد الظهر توجهت إلى مكتب "أندريه".

قالت:

– لقد جئت بصفتي مريضتك وصديقتك.

وعندما لاحظت دهشته لهذه المقدمة قالت:

– هذا آخر فحص أجريه لديك. بعد بضعة أيام سأعود إلى بيتي في "ترياس" مكاني أنا وابني هناك.

بعد أن فحصها واطمأن على حالتها قادها إلى الباب. وهناك، في لحظة افتراقهما طبع قبلة لطيفة على خدها.

همست:

– شكرا على صداقتك، شكرا على كل شيء.

عندما نزلت من التاكسي الذي أقلها من محطة "دا ڤينيون" إلى الـ"ميكولين" لاحظت أن "تيريز" كانت تقوم بعمل جيد. كانت ممرات الحديقة نظيفة من الحشائش، والبلاط الهالك قد استبدلت به بلاطا جديدا، وشجرة العنب تم تقليمها. أمام الباب كانت "تيريز" تنتظرها، لا تعرف إذا كان يجب أن تضحك أم تبكي. لقد مر أكثر من أربعة شهور لم تر فيها صغيرتها، ولقد شعرت بوحشة غيابها خاصة بعد أن عرفت أن "فاني" حامل.

أسرعت كلاهما إلى حضن الأخرى، ونظرت المربية العجوز في حنان إلى بطن صغيرتها المستدير فتأثرت بشدة، وساعدتها على صعود السلم على الرغم من اعتراض "فاني" التي أكدت لها أنها في حالة طيبة جدا، وأنها ترفض أن تعيش كالزهرة النادرة في مكان منعزل.

كانت الحجرة قد أعيد طلاؤها بلون فاتح، كما تم تغيير الستائر، لكنها لاحظت خاصة وجود مهدها في أحد الأركان.

لقد أحضرته "تيريز" من الصندرة.

قالت:

– هذا مهدك وليس مهد "كلودين". الآخر تركته هناك.

لمست "فاني" السرير الصغير في حنان. هكذا كان كل شيء في مكانه. لقد عادت إلى البيت الذي ولدت فيه حيث توجد "تيريز" التي ترعاها بكل وفاء، وهذا الديكور هو نفسه الذي أحاطها وهي طفلة. إنها تفتقد اليوم "رومان"، ولكن "رومان" لا يستحق أن يعيش في هذا المنزل الذي لا يجب أن يسود فيه سوى الحب والحنان. كما فعلت هي منذ عشرين عاما سيفعل ابنها، ويخطو خطواته الأولى في الممر الذي تصطف الحشائش على جانبيه تحت عينيها، وسيغمس يديه في النافورة، ثم يضحك عندما يلمس الماء البارد، ويذهب ليلقي بنفسه بين ذراعيها.

ستكون تلك هي اللحظات السعيدة التي ستعيشها "فاني". لقد تربت في هذا الجو الهادئ، وقدماها ثابتتان على هذه الأرض الريفية التي أعطتها كل هذه السعادة. الأشجار، النهر، السماء الصافية... كل هذا يشكل عالمها، عالم محفور في نفسها. عندما قررت قبل أربعة أشهر أن تغادر "ترياس"؛ لتغوص في جو آخر. كانت تعرف أن غيابها لن يطول. إن ما كانت تتمناه– دون اقتناع كبير– هو أن تمحو الذكريات المؤلمة التي عاشتها. في لحظة ضعفها فكرت حتى في الذهاب إلى "كولومبيا"؛ لمواجهة "كلودين"، ولكي تضع قدميها على الأرض التي عاش فوقها والدها. وعندما أمعنت التفكير في ذلك تراجعت. إنها لا تميل أبدا إلى الحرب بين الإخوة فهذا ليس من

خصالها.

سألت "تيريز" في قلق:

– فيم تفكرين؟

أجابت "فاني" في فرحة:

– في المستقبل. أفكر في أنه سيكون رائعا.

ارتسمت الابتسامة على شفتي المربية العجوز أمام حماس "فاني". لقد استعادت "فاني" التي عرفتها قبل ظهور "كلودين" في حياتهم. تفحصت وجه صغيرتها فلم تجد أي عبوس.

في الواقع كانت السيدة الشابة تخفي ما تشعر به. إنها ممزقة. عندما رأت غرفتها وقد تجددت، وهذا المهد الذي ينتظر الطفل لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في أنها تفتقد إلى شخص ما لتتم سعادتها. لقد تربت يتيمة، وتستطيع أن تقدر الفراغ الذي يتركه غياب الأب وكيف سيعاني "أدريان" من ذلك. ولكن ماذا تستطيع أن تفعل حيال ذلك؟

لم تكن تستطيع أن تعاند القدر؛ ولذلك حاولت أن تطرد هذه الأفكار السوداء حتى لا تصيب "تيريز" بالاضطراب.

سمعتا صوت سيارة في الفناء.

صاحت السيدة العجوز:

– إنه السيد "أندريه"! لقد أخبرني بأنه سيأتي ليراك.

نزلت الاثنتان إلى الدور الأرضي، وفتح المحامي ذراعيه لاستقبال "فاني" التي أسرعت نحوه.

– إني سعيد جدا لرؤيتك يا عزيزتي! لقد أوحشتنا كثيرا. كما أنني سعيد لأن العادات الطيبة التي اعتدتها مساء كل جمعة ستعود.

توجهوا إلى الشرفة، ثم ذهبت "تيريز" لتحضر الشراب. وعندئذ سمعوا رنين التليفون وعلى الفور جاءت "تيريز" لتخبر "أندريه".

– إنه تليفون لك.

نهض وتوجه نحو المنزل حيث بقي عدة دقائق، وعندما عاد بدت عليه علامات القلق.

– ماذا يحدث يا عمي؟

– إنه مساعدي. لقد أخبرني أن هناك تلغرافا باسمي يعلن عن خبر سيئ.

شعرت "فاني" بالقلق عندما رأت تردد "أندريه دوريل".

قال:

– لقد ماتت "كلودين". ماتت عندما سقطت من على الحصان.

انقبض قلب "فاني"، على الرغم من غضبها الشديد من "كلودين"، فإنها لا تستطيع أن تنسى أنها كانت لها أخت، أخت أرادت بشدة أن تحبها. في الواقع لقد كانت أسرة "دو سان أماند" ملاحقة من القدر.

سالت دموع صامتة على خديها، وحاول "تيريز" و"أندريه" مواساتها.

جاهدت السيدة الشابة نفسها، لا يجب أن تستسلم للحزن، يجب أن تفكر في "أدريان".

أثناء ذلك، كانت "كلودين" تدفن في "كارناچان".

قبل يومين ركبت حصانها "دچانجو" كالمعتاد. منذ عودتها إلى "كولومبيا" لم تعد السيدة الشابة إلى طبيعتها. لقد

أصبحت طباعها أكثر حدة، وتملكها غضب دائم لفشلها في محاولتها ولأن رغبتها في الانتصار على "فاني" لم تتحقق. ففي ذلك اليوم أساءت معاملة حصانها.

خرجت على ظهر حصانها بطول الشاطئ، وأدرك الحصان على الفور أن فارسته لا تتصرف كطبيعتها: كانت تشد اللجام بعصبية. ثم أرادت أن تسرع فدفعت الحصان الذي أصابه الذعر، واندفع على الرمال فسقطت وماتت على الفور كما كسرت ساق "دچانجو".

الفصل الحادي عشر

في شقته بحي "الزمالك" بـ"القاهرة" كان "رومان" يتناول إفطاره في هدوء في التراس الذي يطل على المدينة. لقد اعتاد الاستيقاظ مبكرا محترما هذه العادة المحلية؛ لأنهم لا يعملون إلا في الصباح والعصر في "مصر". منذ نهاية فصل الربيع أصبحت الحرارة لا تطاق في مواقع العمل في فترة بعد الظهر، فمن الأفضل الاستراحة في هذه الساعات.

من موقع الملاحظة أعلى النيل الذي يجري عند قدميه كان ينظر من خلال النظارة المكبرة على الحي الذي يساعد في تجديده حيث يرى أن المنازل الأولى بدأت ترتفع. إن أعمال البناء تتم بسرعة في "مصر". إن الأيدي العاملة متوفرة كما أنها ماهرة جدا. ابتسم فهذه حقيقة بديهية. أليس المصريون هم من بنوا هذه المعجزة المعمارية التي صمدت كل هذه السنين، والتي لم تكن سوى الأهرام؟ إنه يقدر زملاءه في "القاهرة" الذين تعاون معهم خلال ثمانية أشهر. خاصة "إبراهيم حازم". بسرعة رسما مشروعا وافق عليه وزير الأشغال دون أن يجري عليه أي تعديلات. كان موقع العمل قد جهز منذ عدة أيام، حيث جاء رئيس الوزراء لافتتاح الموقع ووضع حجر الأساس تمهيدا لبدء العمل.

قال "إبراهيم" سعيدا بتعاونهما:

– أتعرف؟ سننشيء معا أجمل أحياء "القاهرة". إنهم يمنحوننا كل التسهيلات للنجاح.

لقد ربطت الصداقة بسرعة بين "رومان" والمهندس المصري

الشاب. هذا الأخير كان من مواليد "بورسعيد"، وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة. لقد أتم دراسته الثانوية في مدارس "الفرير"، وبعد ذلك درس الهندسة في جامعة "القاهرة" ثم سافر إلى "باريس"؛ لدراسة الفنون الجميلة فهو يعرف إذن العاصمة الفرنسية مثل "رومان" تماما، وخاصة "الحي اللاتيني".

دعت صلة الصداقة بينهما أن يتأثر "إبراهيم" بوحدته فكان يدعوه عدة مرات إلى العشاء، وأثناء العشاء كان حديثهما يستمر حتى وقت متأخر من الليل. كانا يتحدثان بحماس عن العمل.. وكان الفرنسي والمصري متوافقين من حيث ميلهما للتجديد، ورفضهما للتكرار والتوقف عند أفكار واحدة. أحيانا كانا يشتريان من بائع مشهور الكباب ملفوفا في خبز مستدير، ويذهبان للحديث على طول شاطئ النيل.

ذات مساء دهش "رومان". لقد دعاه "إبراهيم" إلى العشاء، وكان بشكل غامض.

– الساعة التاسعة، "أوبرج الأهرام".

ذهب "رومان" محتارا إلى "الأوبرج" متقدما عن الموعد قليلا. وتنزه في حدائقه. ثم توجه إلى المطعم ودخل القاعة، ورأى "إبراهيم" وهو يدخل ومعه سيدة جميلة.

قال المصري الشاب:

– أقدم لك أختي.

كانت تبدو في العشرين من عمرها على الأكثر. طويلة وممشوقة القوام. شعرها الأسود وعيناها السوداوان ذواتا الأهداب الطويلة تتلاءمان تماما مع بشرتها السمراء. إنها حقا فتاة تثير الإعجاب.

إنها فتاة تتمتع- بجانب جمالها- بحياء جميل وهذا ما جعل "إبراهيم" يتأخر في تقديمها إلى صديقه الفرنسي.

لقد تناولوا في مرح الحمام المحشو بالأرز، واستطاع "رومان" أن يلاحظ سحر وأناقة الفتاة الشابة. إنها مثقفة واجتماعية. كانت ترد على مزاح أخيها بلباقة دون أن تخجل من وجود أجنبي. وعندما عاد "رومان" إلى شقته في "الزمالك" لم يستطع "رومان" أن ينسى هذه السهرة التي مرت في جو خاص من المرح بسبب وجود "فايزة". ولكن على الرغم من إعجابه بها وبجمالها فهو لم يتأثر، هناك امرأة واحدة تشغل قلبه: إنها "فاني" التي فقدها إلى الأبد.

في اليوم التالي فتح قلبه لـ"إبراهيم". سار الاثنان في موقع العمل، وعلى رأس كل منهما خوذة. أوقفه صديقه وقال:

- تبدو حزينا جدا ومنشغلا جدا في هذه الآونة الأخيرة؛ لهذا السبب.

طلبت من "فايزة" أن ترافقنا إلى العشاء. لقد كانت تريد أن تراك بشدة بعد أن حدثتها عنك. نحن في بلادنا نحب الفرنسيين كثيرا. الكثيرون منا تلقوا تعليمهم في مدارسكم.

اعترف له "رومان" متأثرا بتدخله الودي بما يشغله منذ وقت طويل. كان يريد أن يشاركه سره كما كان يرى أنه مدين بالتفسير لصديقه الذي أظهر له كل رعايته. روى له عن مجيئه إلى "فرنسا" من "كولومبيا" ولقائه بـ"فاني" في "ترياس" وحبهما. ثم فراقهما العنيف في الوقت الذي كانا يخططان فيه لمستقبلهما. أدرك "إبراهيم" يأسه، وحاول أن يخفف عنه.

- هيا لتكن متفائلا، سترى أن كل شيء سيسير إلى الأفضل

إن شاء الله.

فكر "رومان" في كل ذلك وهو في شرفة شقته. لقد مضى ثمانية أيام على فتحه لقلبه أمام "إبراهيم"، والآن هو يشعر بالارتياح لذلك. لقد قويت صداقتهما. أنهى قدح القهوة، واستعد للنزول؛ ليأخذ سيارته ويذهب إلى موقع العمل. في هذه اللحظة جاء "محمد" خادمه يحمل له البريد. تفحصه في عجالة وفجأة شد انتباهه ظرف غير مألوف له.

إنه من "فرنسا" من "نيم" والخط غير ماهر. لقد قطع هذا الخطاب طريقا طويلا، لقد أرسل في البداية إلى "كارتاجان"، ومن هناك أعيد إرساله إلى "باريس" حيث أخذه صديقه المهندس وأرسله إليه في "مصر".

نظر إلى ختم البريد، لقد وضع في الصندوق في الثالث من شهر إبريل (نيسان). لقد استغرق ثلاثة أسابيع حتى وصل إليه في "القاهرة".

في حيرة فتح الظرف بسرعة وقفز من الدهشة عندما رأى التوقيع. إنه خطاب من "تيريز"، وكان يخشى أن يعلم خبرا حزينا، ولكنه اطمأن عندما قرأ عدة مقاطع منه.

«سيدي "رومان":

صغيرتي "فاني" لا تعرف أنني أكتب إليك، وإذا عرفت فلن تكون سعيدة. لكني لا أريد أن يولد طفلها الذي هو طفلك أيضا دون أن يكون والده موجودا. إنها ستلد خلال أيام وفقا لكلام الطبيب الذي أكد أنها في حالة جيدة. منذ أن عرفت أنها حامل، وهي تتحلى بالشجاعة ولم تنطق اسمك مرة واحدة. ولكني أعرفها أحسن من أي شخص آخر، وأعرف أنها

قد تغيرت في الآونة الأخيرة. إنها حزينة، وأعتقد أنها تتمنى في قرارة نفسها أن تكون هنا.

كذلك يا سيدي "رومان" يجب أن تأتي إلى الـ"ميكولين" كما أنني لا أستطيع أن أضمن لك استقبال "فاني"، ولكني أعتقد أنك يجب أن تجرب حظك، كما أنني أفكر في الصغير الذي سيولد. لقد مرت العائلة بما يكفي من الأحزان وأريد أن يعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي. ليس من العدل أن يولد "أدريان" – كما قررت أن تسميه– بدون أب.

أتمنى يا سيد "رومان" أن يصلك هذا الخطاب في الوقت المناسب إلى اللقاء».

"تيريز"

كان يطير من الفرحة. إن "فاني" تنتظر طفلا، إذن لقد أخفت عنه هذا الخبر كل هذا الوقت. أخذ يروح ويجيء في الشرفة وهو يتحدث بصوت عال أمام "محمد" الذي سأل نفسه ماذا يحدث. طفل... "فاني" تنتظر طفلهما. أخذ ذهنه يعمل بسرعة. تخيل نفسه يميل إلى المهد يتأمل الصغير "أدريان" مع "فاني". ولكن ألا يسرف في أمله؟ لقد كانت "تيريز" محقة عندما حذرته من الاستقبال الذي قد تقابله به "فاني"، هل ستفتح له الباب؟ هل ستوافق على استقباله؟ إن كونها لم تخبره بحملها يحمل إنذارا برفضها له، على أية حال يجب أن يجرب حظه كما كتبت له "تيريز"، كما أنه لم يعد لديه شيء ليفعله في "القاهرة".

لقد كان منجذبا إلى الـ"ميكولين" كأنه مغناطيس. إنه في هذا

المكان وليس في مكان سواه سيكون سعيدا بالقرب من "فاني" وابنهما. وماذا لو صدته؟ سيبتعد. لقد اكتسبت "فاني" حق القرار بمفردها. لقد تسبب لها في كثير من الألم حتى إنه لا يستطيع أن يمنعها من هذا الحق.

نزل بسرعة الطوابق الأربعة، وركب سيارته. كان الكوبري الذي يعبر النيل مزدحما. وعندما وصل إلى موقع العمل كان "إبراهيم" هناك. لاحظ على الفور نشاط صاحبه.

– "رومان" ماذا يحدث؟

– سأسافر يا "إبراهيم". لقد عرفت توا خبرا رائعا. "فاني" تنتظر طفلا، ويجب أن أذهب إليها بسرعة.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه المصري ولكنه لاحظ في نفس الوقت القلق على وجه "رومان".

– ولكنك منشغل.

قال "رومان":

– لست متأكدا أنها ستوافق على مقابلتي. ليست هي من أخبرتني بهذا الخبر، لقد لاذت بالصمت كل هذا الوقت. وهذا مؤشر سيئ بدون شك.

ربت صديقه كتفه:

– تذكر ما قلته لك ذات مرة يا "رومان". كل شيء سيسير إلى الأفضل.

وحاول طوال اليوم أن يرفع من معنويات صاحبه. ثم ذهبا إلى مكتب "إير فرانس"، وحجزا مقعدا إلى "باريس" على ظهر طائرة تغادر في نفس اليوم بعد الظهر. وبذلك استطاع "رومان" أن يودع وزير الأشغال الذي شكره بشدة على العمل الذي تم

إنجازه. قال له:

– سافر دون أن تقلق. البرنامج في طريقه إلى الانتهاء لن ننسى المساعدة القيمة التي قدمتها لنا.

رافقه "إبراهيم" إلى المطار. متأثرا، لم يتبادل الرجلان أي كلمة طوال الطريق وعند الطائرة صافح "إبراهيم" "رومان" بقوة.

– شكرا على صداقتك يا "إبراهيم"، لقد كنت لي ذا قيمة عظيمة خلال الأشهر الثمانية الماضية.

قال له المصري قبل أن يختفي وسط الجمهور:

– حظا سعيدا.

ركب "رومان" الطائرة، ووصل في المساء إلى "باريس". كانت السماء غائمة، وأشارت برك المياه الواسعة في الشارع أنها قد أمطرت. لقد كان بعيدا عن الجو الدافئ في "مصر"، ولكنه غير مهتم بذلك. لم تكن "باريس" سوى محطة بالنسبة له.

نزل في غرفة "هيلتون أورلي" ووجد صعوبة في أن يغمض عينيه. وفي اليوم التالي طار إلى "نيم".

*****

جاءت نتيجة الأشعة مطمئنة للغاية.

أكد طبيبها في "نيم" على ذلك قائلا:

– كل شيء على ما يرام.

ولكن ما جعلها تطير فرحا هو أن الفحص قد أكد أنها تنتظر صبيا. إنها لم تكن تشك في ذلك في قرارة نفسها. لقد كانت سعيدة لحسن حدسها.

ولكي تشتري ما تحتاجه من أجل الطفل ذهبت "فاني" إلى

"باريس"، وبقيت هناك ثلاثة أيام. كانت قد عادت إلى شقتها في ميدان "دي ڤيكتوار". عندما فكرت في التخلي عن الشقة بدافع اقتصادي ابتسم إليها عمها "أندريه" قائلا:

– هيا يا "فاني" لا تنسي أنك الآن ثرية. احتفظي بهذه الشقة إذا كانت تناسبك. ربما تذهبين إلى "باريس"، فمن الأفضل أن يكون لك بها مكان مستقر بدلا من النزول في فندق.

لم تستطع أن تصدق أنها تمتلك ثروة كبيرة خاصة بعد موت "كلودين". لقد أخبرها محامي "بوجوتا" رسميا بأن نصيب أختها قد رجع إليها، وسألها ماذا تريد أن تفعل بالمزرعة. ورأى "أندريه دوريل" أن تبيعها ولكنها رفضت هذا الرأي. هناك أناس يعيشون في هذه المزرعة، وهؤلاء قد عملوا من أجل والدها فلم ترد أن تسرحهم. على أية حال كانت تعرف أنه سيأتي يوم تذهب فيه إلى "كارتاچان"؛ لتكتشف العالم الذي كان يعيش فيه والدها عندما يأتي "أدريان" إلى الحياة.

على الرغم من ثرائها لم تغير "فاني" من نظام حياتها. لقد أجرت فقط بعض الإصلاحات في الـ"ميكولين". إصلاحات لا يمكن الاستعاضة عنها، كما اشترت سيارة جديدة بدلا من القديمة التي ساءت حالتها.

ازدادت استدارة بطنها مع مرور الأشهر، ولم تشعر بالوقت الذي يمر. لقد كان الشتاء لطيفا ولأول مرة لم يفض نهر "لا سيز" ثم جاء الربيع رائعا. أزهرت أشجار الربيع ولكنها الآن قد ثقلت حتى إنها لا تستطيع أن تتسلق الطريق المرتفع. في الأسبوع الأخير اكتفت بأن خرجت إلى الشرفة في هذا المكان الذي قابلت فيه "رومان" لأول مرة.

الفصل الثاني عشر

في هذا الصباح عندما استيقظت شعرت بالتقلصات الأولى، صاحت:

– "رومان"!

لقد كان ذلك عفويا. لقد اقتربت ساعة الوضع فنادت الرجل الذي تحبه، والذي يبعد عنها آلاف الكيلو مترات.

قالت بصوت منخفض:

– "رومان"، إني أحتاج إليك، أرجوك.

ولكنه لم يكن هنا.. إنها تعرف ذلك. هزت رأسها فوق الوسادة، في التقلص الثاني شعرت بألم كبير. خائفة، نادت "تيريز" التي أسرعت إليها على الفور.

قالت هامسة:

– أعتقد أنه اليوم.

أسرعت السيدة العجوز إلى التليفون، واتصلت بالطبيب في "نيم"، ثم ساعدت السيدة الشابة على ارتداء ملابسها، وظهر العم "أندريه" بعد ذلك عند الباب. منذ بضعة أيام استقر في الـ"ميكولين"؛ ليكون مستعدا لقيادة السيارة في لحظة توصيل "فاني" إلى المستشفى. لقد كانت "تيريز" ضعيفة جدا في القيادة حتى إنه لم يطمئن لفكرة أن يتركها تقود السيارة.

بعد عشر دقائق أجلساها في سيارة المحامي الذي سلك طريق "نيم". بعد ساعة إلا ربعا كانت "فاني" ممددة في غرفتها. في نهاية اليوم تتابعت التقلصات في إيقاع أسرع، وقررت الممرضة أن تنزلها إلى غرفة الولادة. حرصت "تيريز" على أن ترافق النقالة

حتى الباب؛ لتشجعها.

وضعت "فاني" بدون مشاكل في الساعة الثانية صباحا طفلا سمينا: فقد بلغ وزنه ثلاثة كيلو جرامات وسبعمائة جرام. أطلق على الفور صرخة حادة، عندئذ اطمأنت "فاني"، وفقدت وعيها.

بعد بضع ساعات كان النهار قد بزغ. عندما استيقظت لاحظت على الفور أن "تيريز" كانت تسهر عليها طول الوقت جالسة في المقعد. نظرت إليها في عرفان، ودون أن تتأخر عن ذلك مالت نحو المهد الصغير الذي إلى جوارها. كان الطفل ينام في هدوء، يقفل قبضتي يديه. كان شعره أسود كثيفا، ووجهه صغيرا، هذا ما أيقظ الذكريات في "فاني".

همست مخاطبة "تيريز":

– إنه يشبه والده.

هزت هذه الأخيرة رأسها، وأشارت إلى "فاني" بأن تستريح، وبما أنها كانت متعبة فقد أذعنت، وأغلقت عينيها آسفة وغضبت من نفسها؛ لأنها لا تستطيع أن تتأمل وليدها. خلال خمسة أيام لم تسأم من تأمل "أدريان" مكتشفة سعادة أن تكون أما. وبعد أقل من أسبوع نهضت وأرادت أن تعود بسرعة إلى الـ"ميكولين".

في نهاية اليوم ترافقها كل من "تيريز" و"أندريه دوريل" حيث سلكت طريق "ترياس" وفي ذراعيها حملها الثمين. لقد عرضت عليها "تيريز" أن تحمل الطفل؛ حتى لا تتعب ولكنها رفضت بشدة لأنها لا تحتمل أن تفترق عن "أدريان" مهما كان السبب، وكم كانت سعيدة لشعورها به ملتصقا بها.

عندما وصلوا إلى البيت نزلت من السيارة في حرص وصعدت الطابق الأول. ثم وضعت الطفل في مهده، وأغلقت عينيها. تعب الرحلة ممتزجا بالسعادة التي تشعر بها قد جعل رأسها يدور. تمددت على سريرها تفكر في "رومان". ألم تكن قاسية معه عندما طردته من الـ"ميكولين"؟ هل هو مخطئ إلى هذا الحد في حقها؟ في قرارة نفسها كانت مقتنعة بأنه لم يحب "كلودين" أبدا. لا يمكن أن يكون كاذبا في كل مرة كان يعرب لها فيها عن حبه، ولكن دفعتها كبرياؤها إلى أن تأخذ قرار الانفصال عنه، ولكن عندما تتأمل "أدريان" تشعر بالندم. ولكن لقد فات الأوان.

سمعت صوت أقدام تتسلق السلم فلم تعر ذلك أي انتباه. تمنت فقط ألا يوقظ هذا الصوت الطفل. ثم شعرت بأن هناك من ينظر إليها. رفعت رأسها. هربت الدماء من وجهها. في مواجهتها يقف ناظرا إليها في حب، "رومان". إنه "رومان" الذي فقد بعض وزنه، واسمرت بشرته بفعل الشمس المصرية قد عاد أخيرا.

أرادت أن تنهض ولكنه أسرع إليها، وضمها إليه وطبع قبلة طويلة على جبينها.

– لا تتحركي يا عزيزتي.

تأوهت:

– أوه "رومان" أنت هنا. لقد كنت أنتظرك بفارغ الصبر! منذ أن عرفت أنني حامل كنت أتمنى عودتك ولكنك لم تأت. لقد فقدت الأمل.

– كنت أعتقد أنك لا تريدين أن تريني يا "فاني"، لقد بدا

لي أنا أيضا الوقت طويلا، طويلا جدا. عدة مرات كدت أعود إلى الـ"ميكولين" ولكني ترددت. لم أكن أعرف كيف ستستقبلينني ولكني عندما عرفت أنك حامل، واقتربت من الوضع لم أتردد. إني آسف فقط؛ لأني تأخرت قليلا. كنت أود أن أوصلك إلى المستشفى.

– لكن كيف عرفت؟

ابتسم فأدركت على الفور.

همست:

– "تيريز" بالتأكيد هذه العجوز الطيبة. ماذا كنت سأفعل بدونها؟ إني مدينة لها بالكثير...

قال في هدوء:

– الآن أنا هنا. ستعتمدين عليَّ من الآن فصاعدا. إني أعاهدك بأننا لن نفترق أبدا نحن الثلاثة، الحياة تبدأ اليوم.

قالت له:

– قبلني.

ومال من جديد نحوها وقبل شفتيها.

قالت:

– طالما فكرت فيك. إني أذكر تلك الليلة التي اعترفنا فيها بحبنا، بحثت عنك عند شجرة الكريز، وعند الشاطئ، وفي الحقول، وفي المنزل ولم أجدك أبدا، عندئذ أردت أن أعتاد وحدتي، وأن أخطط لمستقبل أنت غائب عنه ولكنني لم أستطع. لقد بدت الحياة بدونك خالية تماما.

صمتت لحظة.

– أوه "رومان"! "رومان"! كم هو جميل أن أجدك بعد أن

ظننت أنني فقدتك إلى الأبد! ولكنك مازلت لم تر ابنك.

همس:

– أنت.. أولا.

ثم نهض ومال نحو المهد. كان "أدريان" يبتسم للملائكة.

قالت ضاحكة:

– هذا الشعر وهذة الجبهة ألا تذكرك بشيء؟

تأمل الوليد طويلا. إن ساعة الغداء قد اقتربت، سمعا "تيريز" تصعد السلم. أخذت "فاني" "أدريان" بين ذراعيها، ونظر "رومان" في حنان إلى هذه اللوحة التي يشكلها الاثنان. وهو الذي كان سيتخلى عن هذه السعادة في لحظة حماقة! بدأت "فاني" تعطي صدرها للطفل. في هدوء انسحب "رومان" من الغرفة، ونزل إلى الحديقة.

كانت الشمس عالية في السماء، وكان الجو جميلا، وطاف طويلا بالمكان الذي يستدعي ذكرياته حتى جاءت "تيريز" تناديه. لقد كانت مشرقة.

– كم أنا سعيدة يا سيد "رومان" بعودتك! لقد تحولت "فاني" منذ أن رأتك.

أمسك ذراعها في لطف:

– هذا بفضلك يا "تيريز". بدون مبادرتك لما عرفت بمجيء "أدريان"، ولم أجرؤ على العودة. لو عرفت الطريق الذي سلكه خطابك قبل أن يصل إليّ لأصابتك الدهشة. لقد وصل إليّ في "مصر" لم أتسلمه سوى صباح الأمس، وركبت الطائرة في نفس اليوم.

همست السيدة العجوز:

– أشكر الله. وهانتم الآن قد اجتمعتم الثلاثة، وهذا ما أردته قبل أن أموت.

– هيا يا "تيريز" لا تقولي حماقات.

قالت المربية:

– هيه.. أشعر بأن العمر قد تقدم بي كثيرا ولقد أصبحت عديمة النفع بما أنك قد عدت.

عادا إلى المنزل واختفت "تيريز" في المطبخ. قررت أن تعتني بالأطباق الذي ستقدمها لتحتفل هذا المساء بوصول "أدريان" إلى البيت.

خلال ذلك صعد "رومان" إلى الغرفة حيث كانت "فاني" تنتظره مع طفلهما. كانت تجلس على السرير، وقد وضعت خلفها وسادتين ناظرة إلى النافذة.

قالت:

– "رومان" أريد أن نذهب لنجلس تحت شجرة الكريز.

ربت جبهتها:

– نعم يا عزيزتي.. ألم نؤكد هناك على حبنا؟ سآخذك إلى حيث تريدين.

أضافت في مكر:

– حتى إلى "كولومبيا"؟

– حتى إلى "كولومبيا". يجب أيضا أن تغفري لوالدك، ولن يحدث ذلك إلا عندما تتأملين أعماله. المسكينة "كلودين" لقد كانت حقودا جدا، وأرادت السيطرة على الآخرين. لقد تسببت ثورتها في ضياعها.

– أنت على علم إذن؟ كيف عرفت بموت "كلودين"؟

– كتب لي مدير المزرعة وأنا في "مصر" قبل أن أذهب إلى "القاهرة" تركت له عنواني.

مضت فترة بعد الظهر في هدوء. فكر "رومان" و"فاني" في مشروعات المستقبل وهما يتأملان الطفل. كان لديهما الكثير لقوله. حوالي الساعة السادسة مساء جاءت "تيريز"؛ لتنتزعهما من ثرثرتهما.

– سيساعدك على النزول للعشاء يا "فاني" لقد أعددت لكما عشاء لن تنسياه. هيا أسرعا، لن يتأخر السيد "أندريه" في الوصول، تعرفان أنه دائما منضبط في المواعيد.

وهي تنزل سلم الـ"ميكولين" تذكرت "فاني" ما حدث منذ عام. كان ذلك في شهر يونيو (حزيران)، وكانت فتاة بدون هموم. ذات مساء جاء عمها إلى العشاء وبرفقته ضيف، رجل شاب شديد الجاذبية كانت قد رأته في الحلم، وقد دهشت كثيرا لهذه المصادفة. وجلسوا جميعا في الشرفة. خلال هذه السهرة لم تستطع أن ترفع عينيها عن الشاب الذي ظهر في حياتها، والذي شعرت تجاهه من أول نظرة بشعور حان: الحب من أول نظرة، كانت تفكر في ذلك كثيرا عندما كانت في السادسة عشرة في هذه السن الرومانسية التي لا تعرف المشاكل، والصعوبات، والمآسي. عندما كانت تتحدث عن ذلك الحب مع "تيريز" كانت هذه الأخيرة تبتسم حتى لا تحرجها وهي تعرف أن الوقت سيأتي لتعرف أن الحياة تدخر ما يكفي من قسوة، وأنه يجب أن تتسلح لتواجه الضربات التي لن تتأخر في اعتراض سعادتها.

قالت "فاني" لنفسها وهي تجلس في المقعد، الضربات التي

نالت منها نصيبها، ولكنها ترى أنها قد ربحت المباراة في النهاية.

في غرفتها يوجد طفل جلب لها السعادة، وإلى جوارها الرجل الذي أرادت أن تعيش إلى جواره ما تبقى لها من عمر منذ أن رأته أول مرة. الآن "فاني" قوية. كانت تعرف أنها ستستطيع أن تحتفظ بالسعادة التي تملأ قلبها، وأن تطرد السحب التي قد تخيم على حياتها. لن يقف بعد الآن بينها وبين "رومان" أي عوائق.

سمعا صوت سيارة: كان "أندريه دوريل" الذي يفي دائما بمواعيده. صافح المحامي "رومان" بحرارة.

قال:

– إني سعيد حقا بعودتك.

انسحب "أندريه دوريل" في وقت متأخر من المساء، وصعدت "فاني" إلى غرفتها. في اليوم التالي شعر "رومان" بالقلق عندما لم تأت "تيريز" لتوقظه؛ ذهب وطرق على باب غرفتها وعندما لم يجبه أحد دخل الغرفة، وأدرك على الفور: لقد ماتت "تيريز"، وكان على شفتيها ابتسامة خفيفة، ابتسامة رضا لشخص قد أوفى بعهده، ووجد أن الوقت قد حان للانسحاب.

الخاتمة

صاح الرجل:

– انتبهوا!

دوت طلقة النار في الوادي. هوى الطائر السمين في مياه نهر "لا سيز" وجرفه التيار.

كان الكلب لا ينتظر سوى إشارة واحدة.

صاح الطفل:

– هيا يا "أوبال" اذهب لتحضره.

ألقى الكلب نفسه في الماء المثلج، وسبح بقوة نحو الطائر وأمسكه. كانت شمس الشتاء الشاحبة تضيء المكان وكانت أفرع الأشجار التي أهوت بها عاصفة الأمس تطفو على صفحة نهر "لا سيز".

عاد "أوبال" إلى الشاطئ. كان "رومان" ينتظر "أدريان" عند صف الأشجار. كان الاثنان يرتديان الملابس الثقيلة.

– حسنا يا أبي لقد نلت من الفريسة من أول طلقة.

وضع "رومان" يده على رأس طفله. كان هذا الأخير سعيدا، واحتضن والده بقوة.

– قل لي يا أبي عندما أكبر هل ستشتري لي بندقية؟

– بالتأكيد يا "أدريان". إني متأكد أنك ستكون صيادا ماهرا.

أخذ "رومان" الطائر من فم "أوبال".

– هذا يكفي اليوم يا "أدريان". لنعد إلى المنزل.. لابد أنهما ينتظرانا. ستحين ساعة الغداء.

ذهب "أدريان" أمامه وهو يجري متوقفا بين آن وآخر ليقطف

ثمار التوت. نظر "رومان" إلى ابنه في حنان. إنه الآن في السابعة من عمره ويبدو أكبر من سنه.

لقد قالت "فاني" لـ"تيريز" بعد مولده عندما استيقظت من الولادة:

– إنه يشبه والده.

لقد اعترف "رومان" بأن ملامح ابنه تشبهه تماما. ولكن كان للصبي نفس سحر والدته، وعينيها الخضراوين اللتين لا تهربان من نظرات الآخرين إليها.

سلكا الطريق، ووصلا إلى الـ"ميكولين". كلما نظر "رومان" إلى المنزل كان يشعر بالدفء يملأ قلبه. إنه يعيش به منذ سبع سنوات ولقد ارتبط بشدة بهذا المنزل القديم الذي يعيشون فيه أياما سعيدة.

بعد شهرين من مولد "أدريان" تزوجا في كنيسة "ترياس" الصغيرة. في مراسم بسيطة لم يدعوا إليها سوى الأصدقاء المقربين. خلال القداس عندما تبادلا الخاتمين نظر "رومان" إلى زوجته في حنان. كم من أحداث مرت بهما في وقت قصير جدا. سنة بالكاد! هذه الفاتنة "فاني" التي تقف إلى جواره الآن كاد أن يفقدها، وكادا أن يفترقا إلى الأبد. ولكن حدثت هذه المعجزة، طفل جميل كان ينتظره في هدوء في الـ"ميكولين"، وعاد الاثنان يميلان إلى مهده ويتأملانه في حنان.

– "فاني دو سان أماند" هل تقبلينه زوجا...

أجابت بقوة:

– نعم.

ومنذ تلك اللحظة ارتبطا إلى الأبد، وتحقق حلمه.

في المساء بدت "فاني" قلقة: الـ"ميكولين"، "كولومبيا"، الورث... كل ذلك كان يدور في رأسها، الآن قد قررت ما تريد. قبل أن تشرح كل شيء لـ"رومان" دعت الله أن يوافقها على رأيها. والأمانة تستدعي أن تحدثه في ذلك في ذات المساء في فجر هذه الحياة الجديدة التي تفتح أمامهما، والتي أرادتها بدون عوائق.

قالت له:

– أنت تعرف مدى ارتباطي بالـ"ميكولين". الحياة هنا تمثل لي سعادة تتجدد كل يوم. ولكني لا أريد أن أكون أنانية، وأجعلك تتخلى عن عملك كمهندس معماري. إذا كنت ترى ضرورة أن تعمل في مكان آخر فساتبعك. إنني سعيدة عندما يكون ثلاثتنا معا. أجبني بكل صراحة.

أخذها في حنان بين ذراعيه، وشكرها بقبلة على هذه المبادرة التي يعرف أنها تكلفها الكثير ثم قال مطمئنا لها:

– لقد طفت بما يكفي في العالم يا عزيزتي، وأريد أن أستقر. "نيم" مدينة مزدهرة، ولا أعتقد أنهم ليسوا بحاجة إلى مهندس إضافي. سأعمل في الوطن.

في الواقع لقد وجد عملا بسرعة.. ليس لأنه كان يحتاج ليكسب عيشه، لقد كانت ثروة "فاني" التي يديرها "أندريه دوريل" تجعلهم يعيشون في سعة من العيش، ولكنه أراد أن يخلق أشكالا جديدة ليشبع رغبته في أن يكون مهندسا متميزا.

ذات يوم تلقى خطابا من صديقه "إبراهيم".

كتب له:

«صديقي العزيز.. لقد سعدت كثيرا بالأخبار التي عرفتها عنك. ولكن منذ سنتين لم أرك، وأود أن أراك، وأتعرف إلى زوجتك وابنك. تعال لتقضي بضعة أسابيع في "مصر"، سأسعد كثيرا باستقبالك.

وفي هذه الفترة تستطيع أن تساعدني في مشروعي لبناء قرية سياحية على البحر الأحمر».

أطلع "فاني" على الخطاب، وقفزت هذه الأخيرة من الفرحة. صاحت

– إنها فكرة ممتازة، متى سنسافر؟

أسرع "رومان" سعيدا بفكرة العودة إلى "مصر" إلى مكتب البريد ليرسل تلغرافا إلى "إبراهيم".

«سنصل بعد ثمانية أيام. مع تحياتي» "رومان".

وصلا إلى "القاهرة" في شهر إبريل (نيسان) قبل الحرارة الشديدة. لقد أعجبت "فاني" بكياسة مضيفهما الذي بذل كل جهده ليجعل من إقامتهما في "مصر" إقامة سعيدة. ولقد واتته الفكرة اللطيفة بأن يستأجر الشقة التي تطل على النيل، نفس الشقة التي كان يشغلها "رومان" خلال إقامته في "مصر". خلال ثمانية أيام طافوا بطول وعرض العاصمة ثم نزلوا إلى "بور توفيق" على البحر الأحمر. وهناك، بينما كان "رومان" و"إبراهيم" يديران العمل كانت "فاني" و"أدريان" يجلسان على الشاطئ الرملي أمام المياه الدافئة. لقد احتفظوا بذكرى جميلة لإجازتهم في "مصر" وكذلك استقبال "إبراهيم" الأخوي لهم.

ومرة أخرى ذهبا في رحلة أبعد، قادتهم إلى "بوجوتا" و"كارتاجان". لقد وعدت "فاني" نفسها بزيارة "كولومبيا" بعد

أن عرفت بمغامرة والدها؛ لتتعرف إلى المملكة التي بناها "چان دو سان أماند".

عندما نزلوا في "بوجوتا" أخذت "فاني" بسحر العاصمة وبقيا فيها عدة أيام. الوقت الذي قابلا فيه المحامي الذي يهتم بأعمالها هناك. ثم سلكا طريق الساحل الكاريبي، وعندما وصلوا إلى الميناء الذي بناه الإسبان أخذوا بجمال البيوت المنخفضة البيضاء.

كانت المزرعة على بعد حوالي ثلاثين كيلو مترا من "كارتاچان"، استقبلهم مدير المزرعة. وعندما فتشت "فاني" في أوراق والدها التي وجدت في مكتب صغير وجدت في ظرف موضوع في عناية صورة لأمها معها ومع أختها. تأثرت بشدة؛ لأن ذلك إشارة واضحة إلى أن "چان دو سان أماند" لم ينسهما أبدا وهو في منفاه الاختياري.

قال "رومان" عندما لاحظ شحوبها:

– جاء دوري لأطرح عليك سؤالا: فكري جيدا، أأنت متأكدة حقا أنك لا تريدين أن تعيشي هنا؟

هزت رأسها بالنفي.

– لا يا "رومان" أشعر بأنني غريبة في "كارتاچان". بشكل ما، لقد كانت "كلودين" محقة عندما أكدت أن هذه أرضها قبل كل شيء؛ لماذا تخيلت أنني سأنتزعها منها؟ لم يكن هناك مجال للنزاع، إن حياتي، حياتنا في "ترياس".

بقيا في "كارتاچان" حوالي عشرة أيام قبل العودة إلى "فرنسا" ليستأنفا حياتهما الهادئة. ذات يوم ذهبت إلى "نيم" خلسة، وعندما عادت كان وجهها مشرقا بالسعادة. كان "أدريان"

و"رومان" ينتظرانها في الحديقة. عندما نزلت من سيارتها أخذت ابنها بين ذراعيها في حنان لتقول له.

– سيكون لك أخت صغيرة.

أطلق "رومان" صيحة فرح، وأسرع واحتضن كليهما دون أن يشعر بأنه يتصرف ويتحدث كما كانت "تيريز" تفعل قبل بضع سنوات. لقد تبنى طبيعتها الراعية تجاه "فاني" وابنه. قالت:

– لست طفلة. ألم أحمل من قبل "أدريان" حتى جاء إلى الحياة في سلام؟

ولكن لم ينصت "رومان" لها، وأحاطها في عناية وفي سعادة..

كان يلاحظ استدارة بطن "فاني" مع الأيام، وعندما اقتربت ساعة الولادة توجه الاثنان إلى الصندرة ليحضرا من جديد المهد الذي احتوى من قبل "أدريان".

وولدت الصغيرة "إميلي". ولكن في هذه المرة كان "رومان" موجودا، وكان هو من رافق زوجته إلى المستشفى. كما في "أدريان"، تمت الولادة بسهولة، وعادت "فاني" بسرعة إلى الـ"ميكولين" ويوم عودتها فكرت في أن سعادتها كاملة.

لم ينقصها سوى "تيريز"، "تيريز" التي تركتهم عندما اقتنعت بأنه لا شيء يستطيع أن يزعزع سعادة صغيرتها "فاني" التي سهرت عليها طويلا.

تقدم "أدريان"، وأسرع نحو والدته التي كانت تنتظرهما عند الباب. و"إميلي" تقف بجانبها تمص أصبعها، وتنظر إليهما وهما يتقدمان.

صاح الصبي:

– لقد اصطاد أبي هذا الطائر.

ازدادت "فاني" جمالا، لقد أضفى عليها وليداها لطفا ورقة، وبقيت عيناها سر جمالها، بنظرتهما العميقة التي تنم عن السعادة.

وضع "رومان" الطائر الذي اصطاده في المطبخ، وعاد إلى زوجته. ذهب الطفلان؛ ليلعبا في الحديقة.

قالت "فاني":

– تعال لنذهب تحت شجرتنا.

تشابكت يداهما، وتوجها نحو الحقل.

سألته هامسة:

– هل تذكر؟ لقد بحنا بحبنا في هذا المكان.

أخذها بين ذراعيه وهمس في أذنها:

– كل يوم وكل دقيقة محفورة في قلبي يا عزيزتي. أنا الذي كان سيتخلى عن هذه السعادة.

ابتعدت.

صاحت:

– لو لم تعد كنت سأبحث عنك في العالم كله. رغما عن قراري كنت أعرف أنني لن أستطيع أن أعيش بدونك.

تقابلت شفاهما. فجأة شعر "رومان" بمن يجذبه من سترته. استدار "فرأى "إميلي" و"أدريان" ينظران إليهما وقد فقدا صبرهما.

– نحن جائعان.

ضحك "رومان" و"فاني" من قلبيهما. كل منهما أخذ طفلا بين ذراعيه ونزلوا نحو الـ"ميكولين"... نحو السعادة.

تمّت بعون الله